

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠ - سُورَةُ يُوسُفَ

سميت به ، عليه السلام ، لتضمنها قوله ^(١) « فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُنُوسَ » ففيه غاية ما يفيد فيه الإيمان ، وضرر تركه وتأخيرته ، وهو المقصد الأعلى من إزال الكتاب - قاله المهايى - .

وهذه السورة مكية ، واستثنى منها قوله تعالى ^(٢) : « فَإِنْ كُفَّتْ فِي شَكٍّ . . . » الآية . وقوله ^(٣) : « وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ . . . » الآية . قيل : نزلت في اليهود . وقيل : من أولها إلى رأس أربعين مكي ، والباقي مدني - حكاه ابن الفرس والسخاوي في (جمال القراء) - . وآياتها مائة وتسعة .

(١) [١٠ / يونس / ٩٨] . (٢) [١٠ / يونس / ٩٥، ٩٤] .

(٣) [١٠ / يونس / ٤٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

«الر» مسرود على نمط التعميد بطريق التحدى . أو اسمٌ للسورة فحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . أى هذه السورة مسماة بـ (الر) . والإشارة إليها قبل جريان ذكرها لما أنها باعتبار كونها على جناح الذكر وبصدده ، صارت في حكم الحاضر ، كما يقال : هذا ما اشترى فلان . أو النصب بتقدير : اقرأ .

وكلمة «تِلْكَ» إشارة إليها ، أما على تقدير كون (الر) مسرودة على نمط التعميد ، فقد نزل حضور مادتها ، التي هي الحروف المذكورة ، منزلة ذكرها فأشير إليها ، كأنه قيل : هذه الكلمات المؤلفة من جنس هذه الحروف البسطة ... الخ .

وأما على تقدير كونه اسماً للسورة ، فقد نوهت بالإشارة إليها بعد تنويعها بتعيين اسمها ، أو الأمر بقراءتها . وما في اسم الإشارة من معنى البعد ، للتنبيه على بعد منزلتها في المخاطبة ، ومحل الرفع على أنه مبتدأ ، خبره قوله تعالى :

«آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ» ، وعلى تقدير كون (الر) مبتدأ ، فهو مبتدأ ثان ، أو بدل من الأول . والمعنى : هي آيات مخصوصة منه ، مترجمة باسم مستقل . والمقصود ببيان بعضيتها منه ، وصفا بما اشتهر اتصافه به من النعوت الفاضلة ، والصفات الكاملة .

والمراد بـ (الكتاب) : إما جميع القرآن العظيم ، وإن لم ينزل السكل حينئذ ، لاعتبار تعينه وتحققه في علم الله تعالى ؛ وإما جميع القرآن النازل وقتئذ ، المتفاهم بين الناس إذ ذاك . و (الحكيم) أى ذو الحكمة ، وإنما وصف به لاشتغاله على فنون الحكم الباهرة ، ونطقه بها ، أو هو من باب وصف الكلام بصفة صاحبه ، أو من باب الاستعارة المسكنية المبنية على تشبيه الكتاب بالحكيم الناطق بالحكمة - أفاده أبو السعود - .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (أَ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ) « أَ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ » الهمزة لإنكار التعجب والتعجب منه ، وإنما أنكر ذلك لكون سنة الله جارية أبداً على هذا الأسلوب في الإيحاء إلى الرجال ، وإنما كان تعجبهم لبعدهم عن مقامه ، وعدم مناسبة حالهم لحاله ، ومنافاة ما جاء به لما اعتقدوه و(القدم) بمعنى السبق مجازاً ، لكونه سببه وآلته ، كما تطلق (اليد) على النعمة ، و(العين) على الجاسوس ، و(الرأس) على الرئيس . ثم إن السبق مجاز عن الفضل والتقدم المعنوي إلى المنازل الرفيعة ، فهو مجاز بمرتين . أو (القدم) بمعنى المقام ، كـ (مَقْعَدِ صِدْقٍ) ^(١) بإطلاق الحال وإرادة المحل ، وإضافته إلى الصدق من إضافة الموصوف إلى الصفة . وأصله (قدم صدق) أى محققة مقررّة . وفيه مبالغة لجعلها عين الصدق ، وتنبيه على أنهم إنما نالوا ما نالوا بصدقهم ، ظاهراً وباطناً .

قال في (الاتصاف) : ولم يرد في سابقة السوء تسميتها (قدماً) إما لأن المجاز لا يطرد ، وإما أن يكون مطرداً ، ولكن غلب العرف على قصرها ، كما يغلب في الحقيقة . « قَالَ الْكَافِرُونَ » وهم المتمجبون « إِنَّ هَذَا » أى الكتاب الحكيم « لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ » أى ظاهر وقريء (لَسَاحِرٌ) على أن الإشارة إلى الرسول صلوات الله عليه . وهو دليل عجزهم وأعتافهم ، وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً ، وذلك لأن التعجب أولاً ، ثم التسلّم بما هو معلوم الانقضاء قطعاً ، حتى عند نفس المعارض ، دأب العاجز المنفخم .

ثم بين تعالى بطلان تعجبهم ، وما بنوا عليه ، وحقق فيه حقيقة ما تعجبوا منه ، وصحة ما أنكروه ، بالتنبيه على بعض ما يبدل عليها من شؤون الخلق والتقدير ، ويرشدهم إلى معرفتها بأدنى تذكير ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ »
قال البخارى ^(١) فى صحيحه فى الرد على الجهمية :

قال أبو العالية : استوى إلى السماء ارتفع . وقال مجاهد : استوى على العرش علا ، أى بلا تمثيل ولا تكيف . والعرش : هو الجسم المحيط بجميع الكائنات ، وهو أعظم المخلوقات . و (الأيام) قيل : كهذه ، وقيل : كل يوم كأف سنة .

« يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » أى يقضى ويقدر ، على حسب مقتضى الحكمة أمر الخلق كله . و « مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ » تقرير لمظمته وعز جلاله ، ورد على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله . « ذَلِّلْكُمُ اللَّهُ » إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة ، أى ذلك العظيم الموصوف بما وصف به هو « رَبُّكُمْ » أى الذى رباكم لتعبدوه « فَاعْبُدُوهُ » أى وحدوه بالعبادة . « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى تفكرون أدنى تفكر فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة ، لا ما تعبّدونه .

(١) أخرجه فى : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٢ - باب وكان عرشه على الماء وهو رب

العرش العظيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَذَابُ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

«إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا» أى بالموت أو النشور . أى لا ترجعون فى العاقبة إلا إليه . فاستعدوا للعاقبة «وَعَذَابُ اللَّهِ حَقًّا» أى صدقا . ثم علل وجوب المرجع إليه بقوله سبحانه : «إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ» أى من النطفة «ثُمَّ يُعِيدُهُ» أى بعد الموت «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ» أى بعدل أو بعدلهم وقيامهم على العدل فى أمورهم ، أو بإيمانهم ، لأنه العدل القويم ، كما أن الشرك ظلم عظيم ، وهو الأوجه لمقابلة قوله : «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ» أى من ماء حار قد انتهى حره «وَعَذَابٌ أَلِيمٌ» وجميع يخلص الله إلى قلوبهم «بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ» تعليل لقوله ، لمقابلة قوله ، فإن معناه ليجزى الذين كفروا بشراب من حميم ، وعذاب أليم ، بسبب كفرهم ، لكنه غير النظم المبالغة فى استحقاقهم للعقاب بجملة حقا مقرر لهم ، كما تفيد (اللام) وللتنبية على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة . والعقاب واقع بالعرض بكسبهم ، وعلى أنه تعالى يقول : إثابة المؤمنين بما لا تحيط العبارة به لفخامته وعظمته ، ولذلك لم يعينه .

ثم نبه تعالى ، للاستدلال على وحدته فى ربوبيته ، بآثار صنعه فى الفيرين ، إثر الاستدلال بما مر من إبداع السموات والأرض ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) « هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً » للعالمين بالنهار « وَالْقَمَرَ نُورًا » أى لهم بالليل : والضياء أقوى من النور . « وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ » الضمير لها ، بتأويل كل واحد منهما ، أو للقمر ، وخص بما ذكر ، لكون منازلها معلومة محسوسة ، وتعلق أحكام الشريعة به ، وكونه عمدة فى تواريخ العرب « لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ » أى حساب الشهور والأيام ، مما ينيط به المصالح فى المعاملات والتصرفات « مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ » أى بالحكمة البالغة « يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى يبين الآيات التكوينية أو التنزيلية المنبهة على ذلك لقوم يعلمون الحكمة فى إبداع الكائنات ، فيستدلون بذلك على وحدة مبدعها .

قال السيوطى : هذه الآية أصل فى علم المواقيت والحساب ومنازل القمر والتاريخ .

ثم نبه للاستدلال على وحدانيته سبحانه أيضاً بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ)

« إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى فى تماقبيهما وكون كل منهما خليفة للآخر « وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب والجمال والبحار وغير ذلك « لَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ » أى لآيات عظيمة دالة على وحدة مبدعها ، وكمال قدرته ، وبالع حكمته . وخص (المتقين) لأنهم المنتفعون بنتائج التدبر فيها ، فإن الداعى إلى النظر والتدبر إنما هو تقواه تعالى ، والحذر من العقوبة .

تنبيه :

في هذه الآيات إشارة إلى أن الذي أوجد هذه الآيات الباهرة ، وأودع فيها المنافع الظاهرة ، وأبدع في كل كائن صنعه ، وأحسن كل شيء خلقه ، وميز الإنسان ، وعلمه البيان - يكون من رحمته وحكمته اصطفاء من يشاء لرسالته ، ليبلغ عنه شرائع عامة ، تحدد للناس سيرهم في تقويم نفوسهم ، وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقاؤهم في الآخرة ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)

[٨] أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[٩] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

[١٠] (دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ، وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا » أى فلا يتوقعون الجزاء « وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ » أى لا يتفكرون فيها « أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * » إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ » أى بسببه ، إلى ماوَاهم ، وهى الجنة ، وإنما لم تذكر تمويلاً على ظهورها ، وانسياق النفس إليها ، لاسيما بملاحظة ما سبق من بيان ماوى الكفرة « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ

النَّعِيمِ» أى من تحت منازلهم أو بين أيديهم . « دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ » أى دعاؤهم هذا الكلام ، لأن (اللهم) نداء ، ومعناه : اللهم إنما نسبحك ، كقول القانت : اللهم إياك نعبد . يقال : دعا يدعو دعاء ودعوى ، كما يقال : شكا يشكو شكاية وشكوى . ويجوز أن يراد بالدعاء العبادة ، ونظيره آية ^(١) (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ : « وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » أى ما يحيي به بعضهم بعضاً ، أو تحية الملائكة إياهم ، كما في قوله تعالى ^(٢) : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ») أو تحية الله عز وجل لهم ، كما في قوله تعالى (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ) . و (التحية) التكرمة بالحالة الجليلة . أصلها : أحياك الله حياة طيبة . و (السلام) بمعنى السلامة من كل مكروه . « وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ » أى وخاتمة دعائهم هو التسبيح « أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى حمده تعالى : والمراد من الآية أن دعاء أهل الجنة وعبادتهم هو قولهم . سبحانك اللهم وبحمدك . وإيثار التعبير عن (وبحمدك) ، بقوله : (وَءَاخِرُ) الخ رعاية للفواصل ، واهتماماً بالحمد وما معه من الفعوت الجليلة ، تذكيراً بمسماها . والآية تدل على سمو هذا الذكر ، لأنه دعاء أهل الجنة وذكر الملائكة كما قالوا ^(٣) : (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) ، ولذلك ندب قراءته بعد تكبيرة الإحرام .

قال الرازى لما استسعد أهل الجنة بذكر (سبحانك اللهم وبحمدك) ، وعانينوا ما فيه من السلامة عن الآفات والمحافات ، علموا أن كل هذه الأحوال السنية ، والمقامات القدسية ، إنما تيسرت بإحسان الحق سبحانه وإفضاله وإتمامه ، فلا جرم اشتغلوا بالحمد والثناء . ولما بين تعالى وعيده الشديد ، أنبئه بما دل على أن من حقه أن يتأخر عن هذه الحياة الدنيوية ، لأن حصوله في الدنيا كالمانع من بقاء التكليف ، فقال تعالى :

(١) [١٩ / مريم / ٤٨] . (٢) [١٣ / الرعد / ٢٣] .

(٣) [٣٦ / يس / ٥٨] . (٤) [٢ / البقرة / ٣٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

« وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ » وهم الذين لا يرجون لقاء تعالى لكفرهم « الشَّرَّ » أى الذى كانوا يستعجلون به ، فإنهم كانوا يقولون ^(١) : (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ارْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) ونحو ذلك « اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ » أى تعجيلاً مثل استعجالهم الدعاء بالخير « لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ » أى لأميتوا وأهلكوا « فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » أى فى ضلالهم وشركهم يترددون .
لطيفة :

زعم الزمخشري أن معنى استعجالهم بالخير ، أى تعجيله لهم الخير . وضع الأول موضع الثانى إشعاراً بسرعة إجابته لهم ، وإسعافه بطلبتهم ، حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم . وعندى أنه صرف اللفظ الكريم عن ظاهره بلا داع . ولا بلاغة فيه أيضاً ، وإن توبع فيه والحرص على موافقة عامل المصدر له ليكونا من باب واحد - غير ضرورى فى العربية ، والشواهد كثيرة .

وجوز الرازى أن يكون (يعجل) أصله يستعجل . عدل عنه تزيهاً للجناب الأقدس عن وصف طلب العجلة ، فوصف بتكوينها ، ووصف الناس بطلبها ، لأنه الأليق . ولعل الأليق أن (استعجالهم) مصدر لفعل دل عليه ما قبله ، والتقدير ، ولو يعجل الله للناس الشر الذى يستعجلون به استعجالهم . وإنما حذف إيجازاً ، للعلم به . ويوافقه قوله تعالى ^(٢) (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ) فإنه فى معنى ما هنا .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٢] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِيًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ
ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
« وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا » أى لكشفه وإزالته « لِجَنْبِهِ » حال من فاعل (دعا)
واللام بمعنى (على) أى على جنبه ، أى مضطجما « أَوْ قَاعِيًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ
مَرَّ » أى مضى على طريقته الأولى ، « كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ » أى كشفه « مَسَّهُ كَذَلِكَ
زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى من الإعراض عن الذكر ، واتباع الشهوات . والآية
سقيت احتجاجا على المشركين ، بما جبلوا عليه كغيرهم من الالتجاء إليه تعالى عند الشدائد ،
علما بأنه لا يكشفها إلا هو ، ليطرحوا عبادة ما لا يضر ولا ينفع ، ويستيقنوا أنه الإله
الأحد ، الذى لا يعبد سواه . وفيها نعى عليهم سوء منقلبهم ، إثر كشف كرباتهم ، وتحذير
من مثل صنيعهم .

ثم ذكروهم تعالى بعظيم قدرته مما وصل إليهم من نيا الأقدمين ليمتقوه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)
« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا » أى بالتكذيب والكفر
« وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » أى فقرر عليهم الحجة بالوجوه
الكثيرة . وما كانوا ليؤمنوا بتلك البينات ولا بغيرها ، فجزام بالإهلاك المعروف فيهم .
« كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) « ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » الخطاب للذين بعث إليهم النبي ﷺ ، أى استخلفناكم فى الأرض بعد القرون التى أهلكناها ، لننظر كيف تعملون من خير أو شر ، فنعاملكم حسب عملكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتِ بَقْرَةٌ إِنِ غَيْرَ هَٰذَا أَوْ بَدَّلَهُ ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتِ بَقْرَةٌ إِنِ غَيْرَ هَٰذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركى قريش ، بأنهم إذا قرأ عليهم النبي ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة ، قالوا له : أنت بقرآن غير هذا ، أى جئنا بغيره من نعط آخر أو بدله إلى وضع آخر . قال تعالى لنبيه : (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي) : أى ليس ذلك لى ، إنما أنا مبلغ عن الله تعالى .

قيل : إنما اكتفى بالجواب عن التبديل ، للإيضاح بأن استحالة ما اقترحوه أولاً ، من الظهور بحيث لا حاجة إلى بيانها . وأن التصدى لذلك ، مع كونه ضائعاً ، ربما يعد من قبيل المجازاة مع السفهاء ، إذ لا يصدر مثل ذلك الاقتراح عن العقلاء . ولأن ما يدل على استحالة

الثاني يدل على استحالة الأول بالطريق الأولى . فهو جواب عن الأمرين بحسب المآل والحقيقة وقوله : (إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي) أى بالتبديل والنسخ من عند نفسى .

قال السيوطى فى (الإكليل) استدل به مَنْ منع نسخ القرآن بالسنة . ١٥ .

قال الزمخشري : فإن قلت . فما كان غرضهم ، وهم أدهى الناس وأمكرهم ، فى هذا الاقتراح ؛ قلت : السكيد والمكر . أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ، ففيه أنه من عندك ، وأنت قادر على مثله ، فأبدل مكانه آخر . وأما اقتراح التبديل والتغيير فللاطمع ، ولاختبار الحال ، وأنه إن وجد منه تبديل فإما أن يهلكه الله فينجوا منه ، أولا يهلكه فيسخره منه ، ويجعلوا التبديل حجة عليه ، وتصحيحاً لا فترائه على الله - انتهى - .

ولما بين بطلان ما افترحوه الإتيان به واستحالة ، أشار إلى تحقيق حقية القرآن ، وكونه من عنده تعالى بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ

عُمُرًا مِّنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

قُلْ « لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ » .

قال الزمخشري : معنى أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمراً عجيباً خارجاً عن العادات ، وهو أن يخرج رجل أى لم يتعلم ولم يستمع ، ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره ، ولا نشأ فى بلد فيه علماء ، فيقرأ عليهم كتاباً فصيحاً ، بهر كل كلام فصيح ، ويعلمو على كل منشور ومنظوم ، مشحوناً بمعلوم من علوم الأصول والفروع ، وأخبار مما كان ويكون ناطقاً بالغيوب التى لا يعلمها إلا الله ، وقد بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تعلمون على أحواله ، ولا يخفى عليكم شئ من أسرار ، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك ، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه ، والصقهم به .

«وَلَا أَدْرَأْكُمْ بِهِ» أى ولا أعلمكم به على لسانى «فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ»
أى من قبل نزوله ، لا أتماطى شيئاً مما يتعلق بنبوهه ، ولا كنت متواصفاً بعلم وبيان ،
فتتهمونى باختراعه . «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» أى فتعلموا أنه ليس إلا من الله ، لا
من مثلى .

قال الزمخشري : وهذا جواب عما دسّوه تحت قولهم (أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا) من
إضافة الافتراء إليه .

تنبيه :

رأى أبو السعود أن الأنسب ببناء الجواب فيما سلف على مجرد امتناع صدور التغيير
والتبديل عنه عليه الصلاة والسلام ، لكونه معصية موجبة للعذاب العظيم ، واقتصار حاله
عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحي ، وامتناع الاستبداد بالرأى ، من غير تعرض هناك
ولا همنا ، لكون القرآن فى نفسه أمراً خارجاً عن طوق البشر ، ولا لكونه عليه السلام
غير قادر على الإتيان بمثله ، أن يستشهد ههنا على المطلوب مما يلائم ذلك من أحواله المستمرة
فى تلك المدة المتطاولة ، من كمال نزاهته عما يوم شائبة صدور الكذب والافتراء عنه فى حق
أحد كائناً من كان ، كما ينبىء عنه تعقيبه بتظليم المفترى على الله تعالى . والمعنى : قد لبثت فيما
بين ظهرا نيكم قبل الوحي ، لا أتمرض لأحد قط بتحكم ولا جدال ، ولا أحوم حول مقال فيه
شائبه شبهة ، فضلاً عما فيه كذب أو افتراء ، أفلا تعقلون أن من هذا شأنه المطرّد فى هذا
العهد البعيد ، مستحيل أن يفترى على الله ، ويتحكم على الخلق كافة ، بالأوامر والنواهي
الموجبة لسفك الدماء ، وسلب الأموال ، ونحو ذلك . وأن ما أتى به وحي مبين ، تنزيل من
رب الملئین - انتهى - .

وما استنفسه رحمه الله ، اقتصر عليه ابن كثير ، ثم استشهد بقول^(١) هرقل ملك الروم

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه فى : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٦ - حدثنا

أبو اليمان الحكم بن نافع .

لأبي سفيان ، فيما سألته من صفة النبي ﷺ ، قال هرقل له : هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان فقلت : لا ! وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة ، وزعيم المشركين ، ومع هذا اعترف بالحق * والفضل ماشهدت به الأعداء * فقال له هرقل : فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ثم يكذب على الله .

وقال جعفر بن أبي طالب للنجاحشي ملك الحبشة^(١) : بعث الله فينا رسولا نعرف صدقه ونسبه وأمانته ، وقد كانت مدة مقامه بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة .
وعن ابن المسيب : ثلاثاً وأربعين سنة . والصحيح المشهور الأول .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ)

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ » استفهام إنكارى معناه الجحد . أى لا أحد أظلم ممن تقول على الله تعالى ، وزعم أنه تعالى أرسله وأوحى إليه ، أو كفر بآياته ، كما فعل المشركون بتكذيبهم للقرآن ، وحملهم على أنه من جهته عليه الصلاة والسلام .

« إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ » أى لا ينجون من محذور ، ولا يظفرون بمطلوب . ونظير هذه الآية قوله تعالى^(٢) (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) . وترتيب عدم الفلاح على من افترى الوحي ، وعده صادق بلا مرية ، فإن مفتريه يبوء بالخزي والفكال ، ولا يشتبه أمره على أحد بحال .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٢٠٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبي)

والحديث رقم ١٧٤٠ (طبعة المعارف) . (٢) [٦ / الأنعام / ٩٣] .

وقد ذكر أن عمرو بن العاص وفد على مسيلة الكذاب - وكان صديقاً له في الجاهلية ، وكان عمرو لم يسلم بعد - فقال له مسيلة : ويحك يا عمرو ! وما ذا أنزل على صاحبكم - يعني رسول الله ﷺ - في هذه المدة ؟ فقال : لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة قصيرة . فقال : وما هي ؟ فقال^(١) : وَالْمَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ * الخ ففكر مسيلة ساعة ثم قال : وأنا قد أنزل على مثله ! فقال : وما هو ؟ فقال : يا وهر يا وهر . إنما أنت أذنان وصدر وسايرك حقر نقر !! كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله ! إنك لتعلم أني أعلم أنك لكذاب ! وقال عبد الله بن سلام^(٢) : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس ، فكنت فيمن انجفل منه ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . قال : فكان أول ما سمعته : يقول : أيها الناس ! أفسحوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام . قل حسان^(٣) :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبير

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ » أي الأوثان التي هي جناد

(١) [١٠٣ / المصّر / ١ - ٣] .

(٢) أخرجه الترمذی فی : ٣٥ - كتاب القيامة ، ٣٢ باب حدثنا محمد بن بشار .

وأخرجه ابن ماجة فی : ٥ - كتاب الإقامة ، ١٧٤ - باب ما جاء في قيام الليل ، حديث رقم ١٣٣٤ (طبعنا) . (٣) ليس في ديوان حسان .

لا تقدر على نفع ولا ضرر ، أى ومن شأن المعبود القدرة على ذلك . « وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ، قُلْ أَنْتَبِئْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ » أى أخبرونه بكونهم شفعاء عنده ، وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله ، وإذا لم يكن معلوماً له - وهو العالم المحيط بجميع المعلومات - لم يكن موجوداً ، فكان خبراً ليس له مخبر عنه .
فإن قلت : كيف أنبأوا الله بذلك ؟ قلت : هو تهمكم بهم ، وبما ادعوه من المحال الذى هو شفاعة الأصنام ، وإعلام بأن الذى أنبأوا به باطل ، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق علمه به ، كما يخبر الرجل بما لا يعلمه .

وقوله : (فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) تأكيده لضعفه ، لأن ما لم يوجد فيهما فهو منقطف معدوم - كذا في الكشف - « سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى عن الشركاء الذين يشركونهم به ، أو عن إشرائهم .

ثم أشار تعالى إلى أن التوحيد والإسلام ملة قديمة كان عليها الناس أجمع ، فطرة وتشريعاً ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً » أى حنفاء متفقين على ملة واحدة ، وهى فطرة الإسلام والتوحيد التى فطر عليها كل أحد « فَاخْتَلَفُوا » باتباع الهوى وعبادة الأصنام ، فالشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة صرفاً للناس عن وجهة التوحيد ، ولذلك بمت الله الرسل بآياته وحججه البالغة ، ليهلك^(١) من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة « وَلَوْلَا

(١) [٨ / الأنفال / ٤٢] .

كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ « أَيْ بِتَأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة » لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ « أَيْ عَاجِلًا فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » بتمييز الحق من الباطل ، بإبقاء الحق ، وإهلاك الباطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا

إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

« وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ » أَيْ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي افْتَرَحُوهَا تَعَمُّقًا وَعُنَادًا ، وَكَانُوا لَا يَمْتَدُّونَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظَامِ الْمُتَكَثِرَةِ ، الَّتِي لَمْ يَنْزِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِثْلَهَا ، وَكَفَى بِالْقُرْآنِ وَحْدَهُ آيَةً بَاقِيَةً عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ ، بِدِيعة غريبة في الْآيَاتِ . « فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ » أَيْ هُوَ الْمُخْتَصُّ بِعِلْمِ الْغَيْبِ ، الْمُسْتَأْثَرُ بِهِ ، لَا عِلْمَ لِي وَلَا لِأَحَدٍ بِهِ . يَعْنِي أَنَّ الصَّارِفَ عَنْ إِزَالِ الْآيَاتِ الْمَقْرَحَةَ أَمْرٌ مَغْيِبٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ .

« فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ » أَيْ فِيمَا يَقْضِيهِ اللَّهُ تَعَالَى فِي عَاقِبَةِ تَعَمُّدِكُمْ ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى ^(١) (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) . وَقَالَ تَعَالَى ^(٢) (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ) . وَقَالَ تَعَالَى ^(٣) (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى كِتَابٍ فِي قِرْطَاسٍ فَلَمْ يَسُوهُ بِأَنْبِيَئِهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) أَيْ فَتُفْشَلُ هَؤُلَاءِ أَقْلٌ مِنْ أَنْ يَجَابُوا لِمَقْرَحَتِهِمْ ، لَفَرَطِ عُنَادِهِمْ . وَلَا يَخْفَى أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَمَّا قَامَ بِهِ الدَّلِيلُ الْقَاهِرُ عَلَى صَدَقِ نُبُوته ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لِإِعْجَازِهِ ، كَانَ طَلَبُ آيَةٍ أُخْرَى سِوَاهُ مِنْ مَقْرَحَتِهِمْ - بِمَالِ حَاجَةٍ لَهُ فِي صِحَّةِ نُبُوته ، وَتَقَرُّرِ رِسَالَتِهِ . فَتَمَلُّهَا يَكُونُ مَفُوضًا إِلَى مَشِئَتِهِ تَعَالَى ، فَتَرَدُّ إِلَى غِيْبِهِ ، وَسِوَاهُ أَنْزَلَتْ أَوَّلًا ، فَقَدْ ثَبَتَتْ نُبُوته ، وَوَضَحَتْ رِسَالَتَهُ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

(١) [١٧ / الإِمْرَاءُ / ٥٩] . (٢) [١٠ / يُونُسَ / ٩٧ و ٩٦] .

(٣) [٦ / الْأَنْعَامُ / ٧] .

ثم أكد تعالى ما هم عليه من العناد واللجاج، مشيراً إلى أنهم لا يُذعنون ولو أُجيبوا لمقترحهم، بما يهدمهم من عدولهم عنه تعالى بعد كشفهم ضررهم ، إلى الإشرak ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا، قُلِ اللَّهُ أَمْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ)

«وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ» أى خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم «إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا» أى يتبين مكرهم ويظهر كامن شرهم ، فهم فى وقت الضراء فى الإقبال عليه تعالى لكشفها ، كالحنادع الذى يظهر خلاف ما يبطن ، ثم ينجلي أمره بعد : «قُلِ اللَّهُ أَمْرَعُ مَكْرًا» أى عقوبة ، أى عذابه أسرع وصولاً إليكم مما يأتى منكم فى دفع الحق . وتسمية العقوبة بالمكر ، لوقوعها فى مقابلة مكرهم وجوداً أو ذكراً . «إِنَّ رُسُلَنَا» أى الذين يحفظون أعمالكم «يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ» أى مكرهم ، أو ما تمكرونه . وهو تحقيق للانتقام ، وتنبيه على أن ما دبروا فى إخفائه غير خاف على الحفظه ، فضلاً عن العلم الخبير .

ثم بين تعالى نوعاً من أنواع مكرهم فى آية إنجائهم من لجج البحر بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

«هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ» أى السفن

« وَجَرَيْنَ » أى السفن « بِهِمْ » أى بالذين فيها « بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ » أى لينة المهبوب ، موافقة المرغوب « وَفَرَّحُوا بِهَا » لأمن الآيات « جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ » أى ذات شدة « وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ » أى أحاط بهم أسباب الهلاك ، وهى شدة الموج والريح « دَعَوْا اللَّهَ » أى للتخلص منها « مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » وهو الدعاء لأنهم حينئذ لا يدعون معه غيره « لَكِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » أى العابدين لك شكراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » أى يفسدون فيها ، ويسارعون إلى ما كانوا عليه من الشرك ونحوه « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » أى الناسين نعمة الخلاص بالإخلاص واستجابة الدعاء « إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ » أى وباله عليكم . « مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » خبر محذوف أو هو متاع . أو خبر ثان . أو هو الخبر لـ (بغيكم) . (وعلی) متعلق به . وقرئ بالنصب مصدر المحذوف ، أى نتممكم . أو مفعول به له . أى تبغون . « ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا وهو وعيد بجزائهم على البنى .

ثم بين تعالى شأن الدنيا وقصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع الموعد بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتَزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتَزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ » أى امتزج به لسريانه فيه ، فالبناء للمصاحبة ، أو هى للسببية ، أى اختلط بسببه حتى خالط بعضه بعضاً ، أى التف بمضه ببعض ، والأول أظهر ، « مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ » من الزروع والثمار والكلاؤ والحشيش « حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا » أى حسنها وبهجتها « وَازِيدَتْ » أى بأصناف النبات « وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا » أى متمكنون من تحصيل حبوبها وثمارها وحصدها « أَتَاهَا أَمْرُنَا » أى عذابنا « لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا » أى كالمحصول من أصله « كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ » أى لم تنبت « بِالْأَمْسِ » أى قبيل ذلك الوقت . و (الأمس) مثلٌ في الوقت القريب « كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » أى بالأمثلة تقريباً « لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى معانيها .

تنبيه :

قال القاشانى : البغى ضد العدل ، فكما أن العدل فضيلة شاملة لجميع الفضائل ، وهياة وحدانية لها ، فائضة من نور الوحدة على النفس ، فالبغى لا يكون إلا عن غاية الانهماك فى الرذائل ، بحيث يستلزمها جميعاً ، فصاحبها فى غاية البعد عن الحق ، ونهاية الظلمة ، كما قال : الظلم ظلمات يوم القيامة ^(١) . فلهذا قال : (عَلَى أَنْفُسِكُمْ) لا على المظلوم ، لأن المظلوم

(١) أخرجه البخارى فى : ٤٦ - كتاب المظالم والغصب ، ٨ - باب الظلم ظلمات =

سعد به ، وشقى الظالم غاية الشقاء ، وهو ليس إلا متاع الحياة الدنيا . إذ جميع الإفراطات والتفريطات المتقابلة للعدالة تتمتع بطبيعية ، ولذات حيوانية ، تنقضى بانقضاء الحياة الحسنية التي مثلها في سرعة الزوال ، وقلة البقاء ، هذا المثل الذي مثل به ، من تزين الأرض بزخرفها من ماء المطر ، ثم فسادها بيمض الآفات سريراً قبل الانتفاع بنباتها ، ثم تتبعضها الشقاوة الأبدية ، والمذاب الأليم الدائم .

وفي الحديث ^(١) : أسرع الخير ثواباً صلة الرحم ، وأعجل الشر عقاباً البغى واليمين الفاجرة ، لأن صاحبه تتراكم عليه حقوق الناس ، فلا تحتمل عقوبته المهل الطويل الذي يحتمله حق الله تعالى .

وسمعت بعض المشايخ يقول : فلما يبلغ الظالم والفاسق أو ان الشيخوخة ، وذلك لمبارزتهما الله تعالى في هدم النظام المصروف عنايته تعالى إلى ضطبه ، ومخالفتهما إياه في حكمته وعدله . انتهى .

ولما ذكر تعالى الدنيا وسرعة تقضيها ، رغب في الجنة ودعا إليها ، وسماها دار السلام ، أى من الآفات والنقائص ، لذكر الدنيا بما يقابله من كونها معرضاً للآفات كما مر ، فقال سبحانه :

= يوم القيامة ، حديث ١٢٠٤ .

ومسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ٥٧ (طبعنا) .

(١) أخرجه ابن ماجه في : ٣٧ - كتاب الزهد ، ٢٣ - باب البغى ، حديث رقم ٢١٢ (طبعنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَاللّٰهُ يَدْعُوْا اِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِىْ مَنْ يَّشَاءُ اِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ)
 [٢٦] (لِّلَّذِيْنَ اَحْسَنُوْا الْحُسْنٰى وَزِيَادَةٌ ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوْهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ،
 اُولٰٓئِكَ اَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ)

« وَاللّٰهُ يَدْعُوْا اِلَى دَارِ السَّلَامِ » أى يدعو الخلق بتوحيده إلى جنّته « وَيَهْدِىْ مَنْ يَّشَاءُ اِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ » أى دين قيم يرضاه ، وهو الإسلام .
 « لِّلَّذِيْنَ اَحْسَنُوْا الْحُسْنٰى وَزِيَادَةٌ » أى للذين أحسنوا النظر ، فمرفوا مكر الدنيا والتمهوات ، فأعرضوا عنها ، وتوجهوا إلى الله تعالى ، فمبدوه كأنهم يرونه ، الثوبة الحسنى ، وهى الجنة ، وزيادة على الثوبة ، وهى التفضل كما قال تعالى^(١) : (وَيَزِيْدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) .
 وأعظم أنواعه النظر إلى وجهه تعالى الكريم . ولذا تواتر تفسيرها بالرؤية عن غير واحد من الصحابة والتابعين . ورفعها ابن جرير إلى النبى صلوات الله عليه ، عن أبى موسى وكعب ابن عجرة ، وأبى . وكذا ابن أبى حاتم .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية (لِّلَّذِيْنَ اَحْسَنُوْا ...) الخ وقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة ! إن لكم عند الله موعدا ، يريد أن ينجزكموه . فيقولون : ما هو ؟ ألم يشغل موازيننا ، ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه . فوالله ! ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم . وهكذا رواه مسلم^(٣) .

(١) [٤/النساء/١٧٣] و [٢٤/النور/٣٨] و [٣٥/فاطر/٣٠] و [٤٢/الشورى/٢٦] .

(٢) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ١٥ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩٧ (طبعنا) .

« وَلَا يَرَهُ قُوجُوهُهُمْ قَتَرٌ » أى لا يغشاها غبرة سوداء من أثر حب الدنيا والشهوات
« وَلَا ذِلَّةٌ » أى أثر هوان ، وكسوف بال ، من أثر الالتفات إلى ما دون الله تعالى .
قال الناصر: وفي تعقيب الزيادة بهذه الجملة مصداق لصحة تفسير الزيادة بالرؤية الكريمة ،
فإن فيه تنبيه على إكرام وجوههم بالنظر إلى وجه الله تعالى ، فحذر بهم أن لا يرهق وجوههم
قتر البعد ، ولا ذلة الحجاب ؛ عكس المحرومين المحجوبين ، فإن وجوههم مرهقة بقتر الطرد ،
وذلة البعد .
وقوله تعالى : « أُولَئِكَ » أى الذين أحسنوا « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، مَا لَهُمْ مِّنَ
اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ، أُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ » أى الشرك والمعاصى « جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ
ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ » أى واق يقيههم العذاب « كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ » أى ألبست
« وَجُوهُهُمْ قِطْعًا » أى أجزاء « مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا » لفرط سوادها وظلمتها . وذلك
لارتكابهم الهيأة الظلمة من الميول الطبيعية ، والأعمال الرديئة ، والقصد الإخبار بأبدع تشبيه
عن سواد وجوههم . وقد ذكر هذا المعنى فى غير ما آية « أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ » .

ثم بين تعالى ما ينال المشركين يوم الحشر من التوبيخ والحزى بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ، فَزَيْلَنَا بِهِمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ)

« وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا » يعنى المشركين ومعبوداتهم للمقاولة بينهم ثمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا « أى معبوديهم بالله ، مع توقعهم الشفاعة منهم « مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ » أى الزموا مكانكم ، لا تبرحوا حتى تغفروا ما يفعل بكم .

قال القاشانى : معناه قفوا مع ما وقفوا معه فى الموقف من قطع الوصل والأسباب التى هى سبب محبتهم وعبادتهم ، وتبرؤ المعبود من العابد لا نقطاع الأغراض الطبيعية التى توجب تلك الوُصل .

ومعنى قوله : « فَزَيْلَنَا بِهِمْ » أى مع كونهم فى الموقف معاً ، فرقنا بينهم ، وقطعنا الوُصل التى بينهم ، فلا يبقى من العابدين توقع شفاعة ، ولا من المعبودين إفادتها ، لو أمكنتهم « وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ » إذ لم تكن عبادتكم عن أمرنا ، بل عن أمر الشيطان ، فكنتم عابديه بالحقيقة ، بطاعتكم إياه ، وعابدى ما اخترعتموه فى أوهامكم من أباطيل فاسدة ، وأمانى كاذبة .

قيل : القول مجاز عن تبرئهم من عبادتهم ، وأنهم عبدوا أهواءهم وشياطينهم ، لأنها الآمرة لهم دونهم ، لأن الأوثان جمادات وهى لا تنطق . وقيل : ينطقها (الله الذى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) ^(١) ، فتشافهم بذلك ، مكان الشفاعة التى كانوا يتوقعونها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَكَفَى بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ)

« فَكَفَى بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ » أى انما « لَغَافِلِينَ »
أى الله يعلم أنا ما أمرناكم بذلك وما أردنا عبادتكم إيانا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (هُنَالِكَ تَبْلُوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ، وَرُدُّوْا إِلَى اللّٰهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ،

وَصَلََّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوْا يَفْتَرُوْنَ)

« هُنَالِكَ » أى فى ذلك المقام الدهش ، حين قطع المواصله ، وإنكار الشركاء العبادة
« تَبْلُوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ » أى تختبر وتذوق كل نفس ما أسلفت من العمل ، فتماين
أثره من قبح وحسن ، ورد وقبول ، كما يختبر الرجل الشئ ويعرفه ، ليكتفه حاله . وهذا
كقوله تعالى ^(١) : (يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ بِوَمُؤْتِدٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) وقوله ^(٢) (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) .
« وَرُدُّوْا إِلَى اللّٰهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ » الضمير للذين أشركوا ، أى ردوا إلى الله المتولى
جزاءهم بالعدل والقسط « وَصَلََّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوْا يَفْتَرُوْنَ » أى ضاع عنهم ما افتروه من
اختراعاتهم ، وأصول دينهم ومذهبهم ، وتوهماتهم الكاذبة ، وأمانتهم الباطلة . أى ظهر
ضياعه وضلاله ، فلم يبق له أثر فيهم .

وفى هذه الآية تبكيه شديده للمشركين الذين عبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى
عنهم شيئاً ، ولم يأمرهم بذلك ، ولا رضى به ، ولا أراد به ، بل تبرأ منهم ، أخرج ما يكونون
إلى المعونة . والمشركون أنواع وأقسام ، وقد ذكرهم تعالى فى كتابه ، وبين أحوالهم ، ورد
عليهم آثم رد .

ثم احتج على المشركين على وحدانيته باعترافهم بربوبيته وحده بقوله سبحانه وتعالى :

(١) [٧٥ / القيامة / ١٣] . (٢) [٨٦ / الطارق / ٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأُمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

« قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » بالإمطار والإنبات وهل يمكن إلا ممن له التصرف العام فيها « أَمْ مَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ » أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذى سوا عليه من الفطرة العجيبة ، كقوله تعالى ^(١) : (قُلْ هُوَ الَّذِى أُنشَأَكُمْ وَحَمَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ) .

« وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ » يعنى النسمة من النطفة ، أو الطير من البيضضة ، أو السنبلة من الحب ، (وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) كأن يخرج النطفة من الإنسان والبيضضة من الطائر . وقيل : المراد أن يخرج المؤمن من الكافر أو الكافر من المؤمن . « وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ » أى ومن يلى تدبير أمر العالم كله ، بيده ملكوت كل شيء ، تعميم بعد تخصيص . « فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ » إذ لا مجال للمكابرة لغاية وضوحه « فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ » أى أفلا تخافون بعد اعترافكم ، من غضبه لعبادة غيره اتباعاً للهوى .

♦ القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) « فَذَلِكُمُ » إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله « اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ » الثابت وحدانيته ثباتاً لا ريب فيه ، لمن حقق النظر « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ » يعنى أن الحق والضلال لا واسطة بينهما ، فمن تخطى الحق وقع فى الضلال . أى فما بعد حقيقة ربوبيته إلا بطلان ربوبية ما سواه ، وعبادة غيره ، انفراداً أو شركاً « فَأَنَّى تُصْرَفُونَ » أى عن الحق

(١) [٦٧ / الملك / ٢٣] .

الذى هو التوحيد ، إلى الضلال الذى هو الشرك ، وأنتم تعترفون بأنه الخالق كل شيء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى ثبت حكمه وقضاؤه على الذين تمردوا فى كفرهم ؛ وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه . وقوله (أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) بدل من الكلمة ، أى حق عليهم انتفاء الإيمان . وعلم الله منهم ذلك . أو أراد بالكلمة العدة بالعذاب ، و (أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) تعليل بمعنى (لَا يُؤْمِنُونَ) - أفاده الرخشرى - أى كقوله تعالى ^(١) (قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى السَّكَافِرِينَ) وقوله تعالى ^(٢) : (أَمَّا حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ) قيل : (الَّذِينَ فَسَقُوا) مظهر وضع موضع ضمير المخاطبين للإشمار بالعلية ، و (الفسق) هنا التمرد فى الكفر ، فآل الكلام إلى أن كلمة العذاب حقت عليهم ، لتمردهم فى كفرهم ، ولأنهم لا يؤمنون ، وهو تكرار . وأجيب بأنه تصريح بما علم ضمناً من (الذين فسقوا) ، أو دلالة على شرف الإيمان بأن عذاب المتمردى فى الكفر بسبب انتفاء الإيمان . ثم احتج أيضاً على حقيقة التوحيد وبطلان الشرك بما هو من خصائصه تعالى ، من بدء الخلق وإعادته ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

« قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » أى من يبدؤه من النطفة ، ويجعل فيه الروح ليتعرف إليه ، ويستعمله أعمالاً ، ثم يحييه يوم القيامة ، ليجزيه بما أسلف

في أيامه الخالية . وإنما نظمت الإعادة في سلك الاحتجاج ، مع عدم اعترافهم بها ، إيداناً بظهور برهانها ، للأدلة القائمة عليها سمياً وعقلاً ، وإن إنكارها مكابرة وعناداً لا يلتفت إليه ، وإشماراً بتلازم البدء والإعادة وجوداً وعدمًا ، يستلزم الاعترافُ به الاعترافُ بها . ثم أمر عليه الصلاة والسلام بأن يبين لهم من يفعل ذلك ، ف قيل له : « قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَ تُؤْمِنُ كُونَ » أى فكيف تصرفون إلى عبادة الغير ، مع عجزه عما ذكر . ثم احتج عليهم أيضا ، إخماء إثر إخماء ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ، قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ « أى بوجه من الوجوه ، كبعثة الرسل ، وإبقاء العقل ، وتمكين النظر في آيات الكون ، والتوفيق للتدبر . « قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي لِلْحَقِّ » وهو تبارك وتعالى - « أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ » أى يعبد ويطاع « أَمْ لَا يَهْدِي » أى إلا أن يهديه الله تعالى - نزل منزلة من يعقل لإخامهم - وقيل معناه : أم من لا يهتدى من الأوثان إلى مكان فينقل إليه إلا أن ينقل . أو لا يهتدى ولا يصح منه الاهتداء ، إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيواناً مكلفاً ، فيهديه . وقد قرئ (أَمْ لَا يَهْدِي) بفتح الياء والهاء وتشديد الدال ، أصله يهتدى ، ادغمت التاء في الدال ، ونقلت فتحة التاء المدغمة إلى الهاء ؛ وقرئ بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال ، لأنه لما نقلت الحركة التقى ساكنان ، فكسر أولهما للتخلص من التقائهما ، وقرئ بسكون

الهاء وبتخفيف الدال، على معنى (يهتدى) . والعرب تقول : يهتدى بمعنى يهتدى . يقال : هديته فهدى أى اهتدى .

وقوله تعالى : « فَمَا لَكُمْ » مبتدأ وخبر ، والاستفهام للإنكار والتعجب . أى : أى شئ لكم فى اتخاذ هؤلاء العاجزين عن هداية أنفسهم ، فضلاً عن هداية غيرهم ، شركاء . وقوله : « كَيْفَ تَحْكُمُونَ » مستأنف ، أى كيف تحكمون بالباطل ، حيث ترعمون أنهم أنداد الله ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ

« وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ » أى فى اعتقادهم ألوهية الأصنام « إِلَّا ظَنًّا » اعتقاداً غير مستند برهان ، بل لخيلات فارغة ، وأقيسة فاسدة . والمراد : (الأكثر) : الجميع . « إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ » أى من العلم والاعتقاد الحق « شَيْئًا » أى من الإغناء . ذ (شيئاً) فى موضع المصدر ، أى غناء ما . أو مفعول ل (يغنى) ، و (مِنْ الْحَقِّ) حال منه . « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ » وعيد على اتباعهم الظن ، وإعراضهم عن البرهان .

تنبيه :

قال الرازى فى هذه الآية :

اعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولاً ، ثم بالهداية ثانياً ، عادة مطردة فى القرآن . فحكى تعالى عن الخليل عليه السلام أنه ذكر ذلك فقال : (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) ^(١) وعن موسى عليه السلام مثله فقال : (رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) ^(٢) . وأمر محمد ﷺ بذلك فقال : (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ

(١) [٢٦ / الشعراء / ٧٨] . (٢) [٢٠ / طه / ٥٠]

غَسَوِي * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ^(١) . وهو في الحقيقة دليل شريف ، لأن الإنسان له جسد وروح ، فلا استدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد - هو الخلق ، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية فهنا أيضاً ، لما ذكر دليل الخلق في الآية الأولى وهو قوله ^(٢) : (أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) أتبعه بدليل الهداية في هذه الآية . والمقصود من خلق الجسد حصول الهداية للروح ، كما قال تعالى ^(٣) : (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ، وهذا كان كالتصريح بأنه تعالى إنما خلق الجسد ، وإنما أعطى الحواس ، لتسكون آلة في اكتساب المعارف والعلوم . وأيضاً ، فالأحوال الجسدية خسيصة يرجع حاصلها إلى الالتذاذ بذوق شيء من الطعوم ، أو لمس شيء من الكيفيات الملموسة . أما الأحوال الروحانية ، والمعارف الإلهية . فإنها كمالات باقية أبد الآباد ، مصونة عن السكون والفساد . فعلما أن الخلق تبع للهداية ، والمقصود الأشرف الأعلى حصول الهداية . ولاضطراب العقول وتشعب الأفكار كانت الهداية وإدراك الحق بإعائته تعالى وحده . والهداية إما أن تكون عبارة عن الدعوة إلى الحق ، أو عن تحصيل معرفتها . وعلى كلٍ فقد بينا أنها أشرف المراتب ، وأعلى السعادات ، وأنها ليست إلا منه تعالى . وأما الأصنام فإنها جمادات لا تأثير لها في الدعوة إلى الحق ، ولا في الإرشاد إلى الصدق ، فثبت أنه تعالى هو الموصل إلى جميع الخيرات في الدنيا والآخرة ، والمرشد إلى كل الكمالات في النفس والجسد ، وأن الأصنام لا تأثير لها في شيء من ذلك ، وإذا كان كذلك ، كانت عبادتها جهلاً محضاً ، وسفهاً صرفاً . فهذا حاصل الكلام في هذا الاستدلال . اهـ .

ثم بين تعالى حقيقة هذا الوحي المنزل ، رجوعاً إلى ما افتتحت به السورة من صدق نبوة المنزل عليه ، ودلائلها في آيات الله الكونية ، والمنبئة عن عظم قدرته ، وجليل عنايته ، يهداية بريته ، فقال تعالى :

(١) [٨٧ / الأعلى / ٣-١] . (٢) [١٧ / النمل / ٦٤] . (٣) [١٦ / النحل / ٧٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي

بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ » لا متناع ذلك؛ إذ ليس لمن دونه تعالى كمال قدرته التي بها عموم الإعجاز « وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » أى مصدقاً للتوراة والإنجيل والزبور بالتوحيد ، وصفة النبي ﷺ . و (تصديق) منصوب على أنه خبر (كان) أو علة لمحذوف ، أى أنزله تصديقاً للح . وقرئ بالرفع خبراً لمحذوف ، أى : هو تصديق الذى بين يديه . أى وبذلك يتعين كونه من الله تعالى ، لأنه لم يقرأها ، ولم يجالس أهلها ، « وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ » أى وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع ، من قوله ^(١) (كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) كما قال على رضى الله عنه ^(٢) : فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وفصل ما بينكم . « لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى منتقياً عنه الريب ، كائناً من رب العالمين ، أخبار آخر لما قبلها .

قال أبو السعود : ومساق الآية ، بعد المنع عن اتباع الظن ، لبيان ما يجب اتباعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَطَعْتُمْ مِنْ

دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » أى بل يقولون . فـ (أم) منقطعة مقدرة بـ (بل والهمزة) عند الجمهور ، والهمزة للإنكار . أى ما كان ينبغى ذلك . وقيل : متصلة ، ومما دلها

(١) [٤ / النساء / ٢٤] . (٢) أخرجه الترمذى فى : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ،

١٤ - باب ما جاء فى فضل القرآن .

مقدر . أى أيقرون به بمد ما بيننا من حقيقة أم يقولون افتراء . « قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ »
أى إن كان الأمر كما تزعمون ، فأتوا ، على وجه الافتراء ، بسورة مثله فى البلاغة ، وحسن
الصياغة ، وقوة المعنى ، فأنتم مثل فى العربية والفصاحة ، وأشد تمردا فى الفظم « وَادْعُوا
مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى ادعوا من دونه تعالى ، ما استطعتم
من خلقه ، للاستعانة به على الإتيان بمثله - إن صدقتم فى أنى اختلقته - فإنه لا يقدر
عليه أحد .

قال أبو السعود : وإخراجه سبحانه من حكم الدعاء ، للتخصيص على برأتهم منه تعالى ،
وكونهم فى عدوة المضادة والمناقضة ، لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه ، فإن
ذلك مما يؤمهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم إليه .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ، كَذَلِكَ كَذَّبَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

« بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ » إضراب وانتقال عن إظهار بطلان ما قالوا
فى حق القرآن العظيم بالتحدى ، إلى إظهاره ببيان أنه كلام ناشئ عن جهلهم بشأنه الجليل .
أى سارعوا إلى التكذيب به ، وفاجئوه فى بديهة السماع ، وقبل أن يفقهوه ويعلموا كنه
أمره ، وقبل أن يتدبروه ، ويقفوا على تأويله وممانيه وما فى تضاعيفه من الشواهد الدالة
على كونه ليس مما يمكن أن يقدر عليه مخلوق ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم
عن مفارقة دين آبائهم . كالناشئ على التقليد من الحشوية ، إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ
عليه وألفه ، وإن كانت أضوا من الشمس فى ظهور الصحة ، وبيان الاستقامة ، أنكرها

في أول وهلة ، واشتاز منها ، قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد ، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه ، وفساد ما عداه من المذاهب . وسر التعبير (بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) الإيذان بكال جهلهم به ، وأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم علمهم به - كذا في الكشف وأبي السعود - .

« وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ » أى بيان ما يؤول إليه ، مما توعدهم فيه . وهذا المعنى هو الصحيح في الآية ، وقد مشى عليه غير واحد .

قال في (تنوير الاقتباس) : أى عاقبة ما وعدهم في القرآن .

وقال الجلال : أى عاقبة ما فيه من الوعيد .

وقال القاشانى : تأويله : أى ظهور ما أشار إليه في مواعيده ، وأمثاله مما يؤول أمره وعلمه إليه ، فلا يمكنهم التكذيب ، لأنه إذا ظهرت حقائقه لا يمكن لأحد تكذيبه .

« كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى بآيات الرسل ، قبل التدبر في معانيها . « فَأَنظِرْهُمْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ » أى من هلاكم بسبب تكذيبهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ)

[٤١] وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ أَنُتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ)

[٤٢] (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ)

« وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ » أى يصدق به في نفسه ، ولكن يكابر بالتكذيب . « وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ » .

« وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » أى إن أصروا على تكذيبك ، فقبراً منهم ، فقد أعذرت .

ثم أشار إلى أنهم ممن طبع على قلوبهم بقوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ » أى إذا قرأت القرآن « أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ » أبرزهم في عدم انتفاعهم بسماعهم ، لكونهم لا يعون ولا يقبلون ، بصورة الصم المتهوئين : أى أنطمع أنك تقدر على إسماع الصم ، ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم ؟ لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع في صماخه دوى الصوت ، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل فقد تم الأمر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصِرُونَ) « وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصِرُونَ » كذلك أبرزهم ، لعدم انتفاعهم بمشاهدة أدلة الصدق وأعلام النبوة ، بصورة العمى المضموم إلى عماهم فقد البصيرة . أى أحب هداية من كان كذلك ؟ لأن الأعمى الذى له فى قلبه بصيرة قد يحبس ويتظان ، أما مع الحق فجهد البلاء . يعنى أنهم فى اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا ، كالصم والعمى الذين لا بصائر لهم ولا عقول - كذا فى الكشف - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ) « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » بتمذيبهم من غير أن تقوم الحجة عليهم ، بإرسال الرسل ، وإزالة الكتب ، ومن غير أن يكونوا سليمى الحواس والمدارك ، فإنه لعدله لا يفعل ذلك . « وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ » بالكفر والتكذيب وعدم استعمال حاساتهم ومدايرهم فيما خلقت له .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ

بَيْنَهُمْ ، قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

« وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ » أى شيئاً قليلاً « يَتَعَارَفُونَ

بَيْنَهُمْ » أى يعرف بعضهم بعضاً ، كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلاً . « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ » أى بالبعث بعد الموت « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » أى من الكفر والضلالة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوْفِينَاكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ

ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ)

[٤٧] (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ، فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ » أى من العذاب « أَوْ نَتَوْفِينَاكَ » أى قبل ذلك

« فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ » أى فننجزهم ما وعدناهم كيفما دار الحال « ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ » أى من مساوى الأفعال .

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ » أى منهم ، أرسل لهدايتهم ، وتزكيتهم بما يصلحهم « فَإِذَا

جَاءَ رَسُولُهُمْ » أى قبلتهم ما أرسل به فكذبوه « قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ » أى بالعدل ،

فأنجى الرسول وأتباعه ، وعذب مكذبوه « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى فى ذلك القضاء المستوجب لتعذيبهم ، لأنه من نتائج أعمالهم .

وقال القاشانى فى قوله تعالى (قُضِيَ بَيْنَهُمْ) : أى بهداية من اهتدى منهم ، وضلالة

من ضل ، وسعادة من سعد ، وشقاوة من شقى ، لظهور ذلك بوجوده ، وطاعة بعضهم إياه لقربه منه ، وإنكار بعضهم له لبعده عنه . أو قضى بينهم بإجاء من اهتدى به وإثابته ، وإهلاك من ضل وتعذبه ، لظهور أسباب ذلك بوجوده - انتهى - .

فلاية على هذا كقوله تعالى ^(١) : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) وجوز أن يكون المعنى : لكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه ، وتدعى به ، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان ، قضى بينهم بإجاء المؤمنين ، وعقاب الكافرين . كقوله تعالى ^(٢) : (وَرَجَىٰ بِالنَّاسِ وَالشَّهَدَاءِ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ) .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)

[٤٩] (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ » استبعادا له ، واستهزاء به « إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » أى فى أنه يأتينا . ولما فيه من الإشعار بكون إتيانه بواسطة النبى صلوات الله عليه . قيل : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا » أى مع أن ذلك أقرب حصولا ، فكيف أملك لكم حتى أستمجل فى جلب العذاب لكم ، وتقديم الضر ، لما أن مساق النظم لإظهار المعجز عنه . وأما ذكر النفع فلقوسيم الدائرة تعميا . والمعنى لا أملك شيئا ما .

« إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » أى أن أملكه . أو لىكن ما شاء الله كائن ، فلا استثناء متصل أو منقطع . وصوب أبو السعود الثانى ، بأن الأول ياباه مقام التبرؤ من أن يكون ، عليه الصلاة والسلام ، له دخل فى إتيان الوعد . وبسط تقريره .

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٦٩] .

وأفاد بعض المحققين أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن الكريم للدلالة على الثبوت والاستمرار ، كما في هذه الآية ، وقوله ^(١) : (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) قال : والنكتة في الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى ، لا بطبيعتها في نفسها ، ولو شاء تعالى أن يغيرها لفعل . اهـ . وهو نفيس جداً فليحرص على حفظه .

وقوله تعالى « لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ » أى لكل واحد من آحاد كل أمة أجل معين « إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » . قال القاشانى : درجهم إلى شهود الأفعال بسلب الملك والتأثير عن نفسه ، ووجوب وقوع ذلك بمشيئة الله ، ليعرفوا آثار القيامة . ثم لوح إلى أن القيامة الصغرى هى بانقضاء آجالهم المقدرة عند الله بقوله : (لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ . . .) الآية - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتًا أَوْ نَهَارًا مَآذٍ يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ)
« قُلْ أَرَأَيْتُمْ » أى أخبرونى « إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ » أى الذى تستعجلون به « بَيَّاتًا » أى ليلاً « أَوْ نَهَارًا مَآذٍ يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ » أى ولا شئ منه يبرغوب البتة .
لطائف :

الأولى - (أرايت) يستعمل بمعنى الاستفهام عن الرؤية البصرية أو الملمية ، وهو أصل وضعه . ثم استعملوه بمعنى (أخبرنى) والرؤية فيه يجوز أن تكون بصرية وعلمية . فالتقدير : أبصرت حالته العجيبة ، أو أعرفتها ؟ فأخبرنى عنها . ولذا لم يستعمل فى غير الأمر العجيب . ولما كانت رؤية الشئ سبباً لمعرفته ، ومعرفته سبباً للإخبار عنه ، أطلق السبب القريب

أو البعيد، وأريد مسببه ، وهل هو بطريق التجوز كما ذهب إليه كثير ، أو التضمن كإذهب إليه أبو حيان - كذا في (العناية) .

الثانية - سر إشار (بيانا) على (ليلا) مع ظهور التقابل فيه ، الإشمار بالنوم والغفلة ، وكونه الوقت الذي يبيت فيه العدو ، ويتوقع فيه ، ويفتنم فرصة غفلته . وليس في مفهوم الليل هذا المعنى ، ولم يشتهر شهرة النهار بالاشتغال بالمصالح والمعاش ، حتى يحسن الاكتفاء بدلالة الالتزام كما في النهار . أو النهار كله محل الغفلة ، لأنه إما زمان اشتغال بمعاش أو غذاء ، أو زمان قيلولة . كما في قوله ^(١) (بَيَانًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ) بخلاف الليل ، فإن محل الغفلة فيه ما قارب وسطه ، وهو وقت البيات ، فلذا خص بالذكر دون النهار . و (البيات) بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم ، لا بمعنى البيتوتة .

الثالثة - قيل : إن استعجالهم العذاب ، كان المقصود منه الاستبعاد والاستهزاء ، دون ظاهره ، فورود (ما) هنا في الجواب على الأسلوب الحكيم . لأنهم ما أرادوا بالسؤال إلا الاستبعاد أن الموعود منه تعالى ، وأنه افتراء ، فطلبوا منه تعيين وقته تهكما وسخرية ، فقال في جوابهم هذا التهكم لا يتم إذا كنت مقرًا بأنى مثلكم ، وأنى لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا ، فكيف أدعى ما ليس لى به حق ؟ ثم شرع في الجواب الصحيح ، ولم يلتفت إلى تهكمهم واستبعادهم - أفاده الطيبي - .

الرابعة - سر إشار (مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ) على (مَاذَا يَسْتَعْجِلُونَ مِنْهُ) هو الدلالة على موجب ترك الاستعجال ، وهو الإجماع ، لأن من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ، ويهلك فرعا من مجيئه ، وإن أبطأ ، فضلا عن أن يستعجله - كذا في (السكشاف) - .

قال في (الانتصاف) : وفي هذا النوع البليغ نكتتان :
إحداها : وضع الظاهر مكان المضمرة .

(١) [٧ / الأعراف / ٤] .

والأخرى : ذكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر .
وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة والمبالغة - والله أعلم - .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ، آ لَآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) .

« أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ » إنكار لإيمانهم بنزول العذاب بعد وقوعه حقيقة ، داخل مع ما قبله من إنكار استعجالهم به بعد إيمانهم به ، تحت القول للأمور به . أى : أبعد ما وقع العذاب وحلّ بكم حقيقة ، ءامنتم به حين لا ينفعكم الإيمان ؟ إنكاراً لتأخيرهم إلى هذا الحد ، وإيداناً باستتباعه للندم والحسرة ، ليقلعوا عما هم عليه من العناد ، ويتوجهوا نحو التدارك قبل فوت الفوات - أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى : « آ لَآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ » على إرادة القول . أى : قيل لهم إذا ءامنوا بعد معاينة العذاب (آ لَآنَ ءَامَنْتُمْ بِهِ) ؟ وذلك إنكاراً للتأخير ، وتوبيخاً عليه . وسر وضع (تستعجلون) موضع (تكذبون) الذى يقتضيه الظاهر ، الإشارة إلى أن المراد به الاستعجال السابق ، وهو التكذيب والاستهزاء ، استحضاراً لمقاتلهم فهو أبلغ من (تكذبون) .

وقيل : الاستعجال كناية عن التكذيب ، وفائدة هذه الحال استحضارها . هذا ما ذكره ، ولا مانع من بقاء الاستعجال على حقيقة ، يدل عليه آية ^(١) : (وَإِذْ قَالُوا لِلَّهِمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً ...) الخ فهم مع تهكمهم رضوا بأن يعابنوا آية يعذبون بها ، لما فى قلوبهم من مرض العناد العضال ، والجهل المصم المعمى ، ولذلك أجيئوا بأن العذاب هل فيه ما يستعجل منه . أى فمثل هذا الاستعجال لا يصدر ممن

له مسكة من عقل ، إذ لا يستعجل إلا ما يرجى خيره ، ثم أعلمهم بعدم فائدة إيمانهم وقتئذ ، وما يوبخون به ، إنكاراً للتأخير - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

[٥٣] (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ ، قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)
ثم قيل للذين ظلموا « أى أشركوا » « ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ » فى الآخرة
« إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ » أى تقولون وتعملون فى الدنيا .

« وَيَسْتَنْبِئُونَكَ » أى يستخبرونك « أَحَقُّ هُوَ » أى الوعد بعذاب الخلد ، أو ادعاء النبوة أو القرآن « قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » أى بفائتين العذاب . فهو لاحق بكم لا محالة . من (أعجزه) الشئ إذا فاته . ويصح كونه من (أعجزه) بمعنى وجده عاجزاً . أى : ما أنتم بواجدى العذاب أو من يوقمه بكم عاجزاً عن إدراككم ، وإيقاعه بكم .

لطائف :

الأولى - دل سؤالهم هذا على محض جهلهم أو عنادهم ، لما ثبت من البرهان القاطع على نبوته بمعجز القرآن ، وإذا صحت النبوة لزم القطع بصحة كل ما ينبئهم عنه ، مما يصدعهم به .

الثانية - إنما أمر بالقسم لاستماتهم ، وللجرى على ما هو المألوف فى المحاوره ، من تحقيق المدعى ، فإن من أقسم على خير ، فقد كسأه حلة الجد ، وخلع عنه لباس الهزل ^(١) (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ) .

(١) [٨٦ / الطارق / ١٤ و ١٣] .

الثالثة - لما كانت الناس طبقات ، كان منهم من لا يسلم إلا بـرهان حقيق^١ ، ومنهم من لا ينتفع به ، ويسلم إلا بالأمور الإقناعية ، نحو القسم ، كالأعرابي^(١) الذي قدم على النبي ﷺ ، وسأله عن رسالته وبعثه ، وأنشده بالذي بعثه ، ثم اقتنع بقوله صلوات الله عليه : اللهم نعم ، فقال : آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورأى من قومي ، وأنا ضمام بن ثعلبة - رواه البخاري في أوئل كتاب العلم - .

الرابعة - قال ابن كثير : هذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان ، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ^(٢) : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ) وفي التغابن^(٣) (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْمَلُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُعْمَلُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) - انتهى - . وقد استعمل ابن كثير هذا مما ذكره شيخه الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) قال :

وحلف ﷺ في أكثر من ثمانين موضعاً ، وأمره الله سبحانه بالحلف في ثلاثة مواضع ، ثم ذكر هذه الآيات ، وكان إسماعيل بن إسحاق القاضي يذاكر أبا بكر بن داود الظاهري ولا يسميه بالفقيه - فتجأكم إليه يوماً هو وخصم له فتوجهت اليه على أبي بكر ابن داود ، فتهياً للحلف ، فقال له القاضي إسماعيل : وتحلف ، ومثلك يحلف يا أبا بكر ؟ فقال : وما ينعنى عن الحلف ، وقد أمر الله تعالى نبيه بالحلف في ثلاثة مواضع من كتابه ؟ قال : أين ذلك ؟ فسردها أبو بكر ، فاستحسن ذلك منه جداً ، ودعاه بالفقيه من ذلك اليوم . انتهى .

(١) إنه لحديث جليل وطويل فانظره في صحيح البخاري في : ٣ - كتاب العلم ،

٦ - باب ما جاء في العلم وقوله تعالى : وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ، حديث رقم ٥٥ .

(٢) [٣٤ / سبأ / ٣] . (٣) [٦٤ / التغابن / ٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ، وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ، وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ « أى بالشرك بالله ، أو التعمدى على الغير ، أو مطلقاً » مَا فِي الْأَرْضِ « أى من الأموال » لَافْتَدَتْ بِهِ « أى لجماعته فدية لها من العذاب » وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ « أى أخفوها أسفاً على ما فعلوا من الظلم . وضمير (أسروا) للنفوس ، المدلول عليها بـ (لكل نفس) . والعدول إلى صيغة الجمع ، لتحويل الخطب ، بكون الخطب بطريق الاجتماع » لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ « أى عابوه » وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ « أى فيما فعل بهم من العذاب ، لأنه جزاء ظلمهم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٥٦] (هُوَ يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » إعلام بأن له الملك كله ، وأنه المتيب المعاقب ، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق ، وهو القادر على الإحياء والإماتة ، لا يقدر عليهما غيره ، وإلى حسابه وجزائه المرجع ، ليعلم أن الأمر كذلك ، فيخاف ويرجى ، ولا يفتر به المغترون - كذا في الكشف - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ » أى تذكيرة لنفوسكم بالوعد والوعيد ، والإنذار والبشارة ، والزجر عن الذنوب المورطة في العقاب ، والتحريض على الأعمال الموجبة للثواب ، لتعملوا على الخوف والرجاء « وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ » أى القلوب من أمراضها ، كالشك والنفاق ، والفيل والغمس ، وأمثال ذلك ، بتعليم الحقائق ، والحكم الموجبة لليقين ، وتصفيتها بقبول المعارف ، والقنور بنور التوحيد « وَهُدًى » أى لنفوسكم من الضلالة « وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » أى لمن آمن به ، بالنجاة من العذاب والارتقاء إلى درجات النعيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

« قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ » يعنى القرآن الذى أكرموا به « وَبِرَحْمَتِهِ » يعنى الإسلام « فَبِذَلِكَ » أى فبمجئيهما « فَلْيَفْرَحُوا » أى لا بالأموال الفانية القليلة المقدار ، الدنيئة القدر والوقع ، « هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » أى من الأموال وأسباب الشهوات ، إذ لا ينفذ بجمعها ولا يدوم ، ويفوت به اللذات الباقية ، بحيث يحال بينهم وبين ما يشتهون .

والفاء داخلة في جواب شرط مقدر ، كأنه قيل : إن فرحوا بشئ فبهما فليفرحوا . أو هى رابطة لما بعدها بما قبلها ، لدالاتها على تسبب ما بعدها عما قبلها . والفاء الثانية زائدة لتأكيد الأولى ، أو الزائدة الأولى ، لأن جواب الشرط في الحقيقة (فليفرحوا) و (بذلك) مقدم من تأخير ، وزيدت فيه الفاء للتحسين . وكذلك جوز أن يكون بدلا من قوله (بفضل الله وبرحمته) .

ثم بين تعالى أن من فضله على الناس تبين الحرام من الحلال على أنسفة الرسل ، لئلا يفترؤا عليه الكذب بتحريم ما أحل أو عكسه ، كما فعل المشركون ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ، أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ » أى ما خلق لكم من حرث وأنعام « فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا » أى أنزله تعالى رزقاً حلالاً كله ، فبعضتموه ، وقلتم : هذا حلال وهذا حرام ، كقولهم ^(١) : (هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ) (مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا) ^(٢) « قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ » فى الحكم بالتحريم والتحليل ، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه « أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ » أى تحتلقون الكذب . ثم بين وعيد هذا الافتراء بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ)

« وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى فيما يفعل بهم ، وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة ، وهو وعيد عظيم ، حيث أبهم أمره « إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ » فى إزال الوحى وتعليم الحلال والحرام « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » أى هذه النعمة ، فيستعملون ما وهب إليهم من الاستعداد والعلوم فى مطالب النفس الخسيسة ، ولا يتبعون ما هدوا إليه .

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٣٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

« وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ » أى أمر ما « وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ » أى التذليل « مِنْ قُرْآنٍ » أى سورة أو آية « وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ » أى تخوضون وتندفعون فيه ، « وَمَا يَعْزُبُ » أى يغيب « عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ » أى غلة أو هباء « فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » أى فى دائرة الوجود والإمكان .

وقوله تعالى : وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ « كلام برأسه ، مقرر لما قبله ، أى مكتوب مبين ، لا التباس فيه . والمراد بالآية البرهان على إحاطة علمه تعالى بحال أهل الأرض ، بأن من لا يغيب عن علمه شئ ، كيف لا يعرف حال أهل الأرض ، وما هم عليه مع نبيه ﷺ . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[٦٣] (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[٦٤] (لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ،

ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ » جمع ولى . وهو فى الأصل ضد العدو ، بمعنى المحب وجاز كونه هنا بمعنى الفاعل ، أى الذين يتولونه بالطاعة ، كقوله تعالى (٣) : « وَمَنْ يَقُولِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » ويعنى المفعول أى الذى يتولاهم بالإكرام كقوله تعالى (١) : (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) وقوله (٢) : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ...) الآية - وكلا المعنيين متلازمان : « لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » من لحوق مكروه ، « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أى من الفرع الأكبر ، كما فى قوله تعالى (٣) : (لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ) .

« الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بكل ما جاء من عند الله تعالى « وَكَانُوا يَتَّقُونَ » أى يخافون ربهم ، فيفعلون أوامره ، ويتجنبون مناهيه ، من الشرك والكفر والفواحش . ومحلُّ الوصول الرفع على أنه خبر لمحدوف ، كأنه قيل : مَنْ أولئك وما سبب فوزهم بذلك الإكرام ؟ فقيل : هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى المفضيين إلى كل خير ، المنجيين من كل شر . أو النصب بمحذوف .

وقوله تعالى : « لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » (الْبُشْرَى) مصدر إما باق على مصدريته ، والمبشر به محذوف ، أى لهم البشارة فيهما بالجنة ، وإنما حذف للعلم به من آيات آخر كقوله تعالى (٤) : (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا ...) إلى قوله : يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ) ، وقوله تعالى (٥) : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) وإما مراد به المبشر به ، وتعريفه للمهد . كقوله سبحانه (٦) (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْمِي نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

وقوله تعالى : « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ » أى لمواعيده « ذَلِكَ » أى بشراكم ، وهى

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] . (٢) [٥ / المائدة / ٥٥] . (٣) [٢١ / الأنبياء / ١٠٣] .

(٤) [٩ / التوبة / ٢١ و ٢٠] . (٥) [٤١ / فصلت / ٣٠] . (٦) [٥٧ / الحديد / ١٢] .

الجنة ، « هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أى المنال الجليل . الذى لا مطلب وراءه . كيف ؟ وقد فازوا بالجنة وما فيها ، ونجوا من النار وما فيها .

تنبيه :

هذه الآية الكريمة أصل فى بيان أولياء الله ، وقد بين تعالى فى كتابه ، ورسوله فى سنته ، أن لله أولياء من الناس ، كما أن للشيطان أولياء . وللإمام تقي الدين بن تيمية ، عليه الرحمة ، كتاب فى ذلك سماه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) نقبس منه جملة يهم الوقوف عليها ، لكثرة ما يدور على الألسنة من ذكر الولي والأولياء . قال رحمه الله : إذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان، فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء ، كما فرق الله ورسوله بينهما . فأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، كما فى هذه الآية ، وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال ^(١) : يقول الله : من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، أو فقد آذنته بالحرب ^(٢) ... الحديث - وهذا أصح حديث يروى فى الأولياء ، دل على أن من عادى ولياً لله ، فقد بارز الله بالمحاربة .

وفى حديث آخر ^(٣) : وإنى لأتأثر لأوليائى كما يتأثر الليث الحرب . أى : آخذ تأثرهم ممن عاداهم ، كما يأخذ الليث الحرب تأثره . وهذا ، لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه ، فأحبوا ما يحب ، وأبغضوا ما يبغض ، ورضوا بما يرضى ، وسخطوا بما يسخط ، وأمروا بما يأمر ، ونهوا عما نهى ، وأعطوا لمن يجب أن يعطى ، ومنعوا من يجب أن يمنع . والولاية ضد المداوة . وأصل الولاية المحبة والقرب . وأصل المداوة البغض والبعد .

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٣٦ - كتاب الفتن ، ١٦ - باب من ترجى له السلامة من الفتن ، حديث رقم ٣٩٨٩ (طبعنا) . (٢) أخرجه البخارى فى : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٣٨ - باب التواضع ، حديث رقم ٢٤٤٠ : (٣) هذا الحديث لم أعتد إليه .

وأفضل أولياء الله هم أنبياءه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضلهم محمد ﷺ ، خاتم النبيين ، وإمام المتقين ، الذي بعثه الله بأفضل كتبه ، وشرع له أفضل شرائع دينه ، وجعله الفارق بين أوليائه ، وأعدائه ، فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به ، وبما جاء به ، واتبعه ظاهراً وباطناً . ومن ادعى محبة الله وولايته ، وهو لم يتبعه ، فليس من أولياء الله ، بل من خالفه كان من أعداء الله ، وأولياء الشيطان . وإن كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم أو في غيرهم أنهم من أولياء الله ، ولا يكونون من أوليائه . فإليه ود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله وأحباؤه . قال تعالى ^(١) (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ . . .) الآية . وكان مشركو العرب يدعون أنهم أهل الله ، لسكنائهم مكة ، ومجاورتهم البيت ، فأُنزل تعالى ^(٢) : (وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ) . وكما أن من الكفار من يدعى أنه ولي الله ، وليس ولياً لله ، بل عدو له ، فكذلك من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ، يقرون في الظاهر بالشهادتين ، ويمتقدون في الباطن ما يناقض ذلك ، مثل ألا يقرؤا باطناً برسالته عليه السلام ، وإنما كان ملصكاً مطاعاً ، ساس الناس ، برأيه ، من جنس غيره من الملوك . أو يقولون إنه رسول الله إلى الأميين خاصة . أو يقولون إنه مرسل إلى عامة الخلق ، وأن لله أولياء خاصة لم يرسل إليهم ، ولا يحتاجون إليه ، بل لهم طريق إلى الله من غير جهته ، كما كان الخضر مع موسى . أو أنهم يأخذون عن الله كل ما يحتاجون إليه ، وينتفعون به من غير واسطة ، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة ، وهم موافقون له فيها . وأما الحقائق الباطنة ، فلم يرسل بها ، أو لم يكن يعرفها . أو هم أعرف بها منه ، أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته . فهؤلاء كلهم كفار ، مع أنهم يمتقدون في طائفتهم أنهم أولياء الله . وإنما أولياء الله : الذين وصفهم تعالى بولايته بقوله ^(٣) (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

(١) [٥ / المائدة / ١٨] . (٢) [٨ / الأنفال / ٣٤] . (٣) [١٠ / يونس / ٦٢ و٦٣] .

ولا بد في الإيمان من أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وأن محمدًا ﷺ خاتم النبيين ، مرسل إلى جميع الثقلين الإنس والجن . فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن ، فضلاً عن أن يكون من أولياء الله المتقين . ومن آمن ببعض ما جاء به ، وكفر ببعض ، فهو كافر ليس بمؤمن .

ومن الإيمان به ، الإيمان بأنه الواسطة بين الله وبين خلقه ، في تبليغ أمره ونهيهِ ، ووعده ووعيدهِ ، وحلاله وحرامهِ . فالحلال ما أحله الله ورسله ، والحرام ما حرمه الله ورسله ، والدين ما شرعه الله ورسله ﷺ . فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقاً إلى الله من غير متابعة محمد ﷺ ، فهو كافر من أولياء الشيطان

وأما خلق الله تعالى للخلق ، ورزقه إياهم ، وإجابته لدعائهم ، وهدايته لقلوبهم ، ونصرهم على أعدائهم ، وغير ذلك من جلب المنافع ، ودفع المضار ، فهذا لله وحده ، يفعله بما يشاء من الأسباب ، لا يدخل في مثل هذا وساطة الرسل .

ثم لو بلغ الرجل في الزهد والعبادة والعلم ما بلغ ، ولم يؤمن بجميع ما جاء به محمد ﷺ ، فليس بمؤمن ، ولا ولي لله تعالى . كالأخبار والرهبان من علماء اليهود والنصارى وعبادهم ، وكذلك المفتسبون إلى العلم والعبادة من مشركي العرب والترك والهند وغيرهم ، ممن كان من حكماء الهند والترك ، وله علم أو زهد وعبادة في دينه ، وليس مؤمناً بجميع ما جاء به ، فهو كافر ، عدو لله ، وإن ظن طائفة أنه ولي لله . كما كان حكماء الفرس من المجوس كفاراً مجوساً ، وكذلك حكماء اليونان مثل أرسطو وأمثاله ، كانوا مشركين ، يعبدون الأصنام والكواكب . وفي أصناف المشركين من هذه الطوائف من له اجتهد في العلم والزهد والعبادة ، ولكن ليس بمؤمن بالرسول ، ولا يصدقهم فيما أخبروا به ، ولا يطيعهم فيما أمروا ، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ، ولا أولياء الله ، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين ، وتنزل عليهم ، فيكاشفون الناس ببعض الأمور ، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر ، وهم من جنس السكهان والسحرة

الذين تنزل عليهم الشياطين . قال تعالى ^(١): (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ) . وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلى المكاشفات ، وخوارق العادات ، إذا لم يكونوا متبیین للرسول ، فلا بد أن يكذبوا ، وتكذبهم شياطينهم ، ولا بد أن يكون في أعمالهم ما هو إثم وجور ، مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع في العبادة ، ولهذا نزلت عليهم الشياطين ، واقرنت بهم ، فصاروا من أولياء الشيطان ، لا من أولياء الرحمن .

ومن الناس من يكون فيه إيمان ، وفيه شعبة من نفاق ، كما في الصحيحين ^(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أوتى خان . وفي صحيح مسلم ^(٣) : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم . وإذا كان أولياء الله هم (المؤمنون المتقون) ، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى ، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى ، كان أكمل ولاية لله . فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل ، بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى ، وكذلك يتفاضلون في عداوة الله ، بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق .

وأولياء الله على طبقتين : سابقون ومقربون وأصحاب يمين مقتصدون ، ذكرهم الله في عدة مواضع من كتابه العزيز . فالأبرار أصحاب اليمين ، هم المقربون إلى الله بالفرائض ، يفعلون ما أوجب الله عليهم ، ويتركون ما حرم الله عليهم ، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات ، ولا الكف عن فضول المباحات . وأما السابقون المقربون ، فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ، ففعلوا

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٢١ - ٢٢٣] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٤ - باب علامة المنافق ، حديث رقم ٣١ .

ومسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٧ و ١٠٨ (طبعنا) .

(٣) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٠٩ و ١١٠ (طبعنا) .

الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات ، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم ، أحبهم الرب حباً تاماً ، كما قال تعالى ^(١) : (وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَىٰ رَبِّهِ بِالْتَوَاضُعِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ) بمعنى الحب المطلق .

ثم إذا كان العبد لا يكون ولياً لله إلا إذا كان مؤمناً تقيّاً ، لهذه الآية - فمعلوم أن أحداً من الكفار والمنافقين لا يكون ولياً لله . وكذلك من لا يصح إيمانه وعبادته ، وإن قدر أنه لا إثم عليه ، مثل أطفال الكفار ، ومن لم تبلغه الدعوة ، وإن قيل إنهم لا يذبون حتى يُرْسِلَ إليهم رسولا ، فلا يكونون من أولياء الله ، إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين . فمن يتقرب إلى الله ، لا بفعل الحسنات ولا بفعل السيئات ، لم يكن من أولياء الله .

وكذلك المجانين والأطفال ، فإن النبي ﷺ قال ^(٢) : رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبي حتى يحتلم ، وعن النائم حتى يستيقظ . وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث عائشة رضي الله عنها ، واتفق أهل المعرفة على تلقينه بالقبول . ولكن الصبي المميز تصح عباداته ، ويثاب عليها عند جمهور العلماء . وأما المجنون الذي رفع عنه القلم ، فلا يصح شيء من عباداته باتفاق العلماء ، ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات ، بل لا يصلح هو ، عند عامة العقلاء ، لأمر الدنيا . كالتجارة والصناعة . فلا يصلح أن يكون بزازاً ولا عماراً ولا حداداً ولا نجاراً ، ولا تصح عقودهم باتفاق العلماء . فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إفرازه ولا شهادته ، ولا غير ذلك من أقواله ، بل أقواله كلها لغو لا يتعلق بها حكم شرعي ، ولا ثواب ولا عقاب . بخلاف الصبي

(١) أخرجه البخاري في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٣٨ - باب التواضع ، حديث ٢٤٤٠ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨٦ - كتاب الحدود ، ٢٢ - باب لا يرجم المجنون والمجنونة ،

وقال عليّ بن عمر : أما علمت أن القلم رفع عن المجنون حتى يفيق وعن الصبي حتى يدرك وعن النائم حتى يستيقظ (في ترجمة الباب) .

المميز فإن له أقوالاً معتبرة في مواضع ، بالنص والإجماع ، وفي مواضع فيها نزاع . وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل ، وامتنع أن يكون ولياً لله ، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه وليّ الله ، لا سيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه ، أو نوعاً من تصرف ، مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فأتى أو صرع . فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين من الشرّكين وأهل الكتاب ، لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية ، كالسكّهان والسحرة وعباد المشركين وأهل الكتاب ، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص ولياً لله ، إن لم يعلم ما يناقض ولاية الله ، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله ؟ مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً ، بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر ، دون الحقيقة الباطنة ، أو يعتقد أن لأولياء الله طريقاً إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . أو يقول إن الأنبياء ضيقوا الطريق ، أو هم قدوة العامة دون الخاصة ، ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعى الولاية . فهو لا يفهم من الكفر ما يناقض الإيمان ، فضلاً عن ولاية الله عز وجل . فمن احتج بما يصدر عن أحدهم ، من خرق عادة ، على ولايتهم ، كان أضل من اليهود والنصارى . وكذلك المجنون ، فإن كونه مجنوناً يناقض أن يصح منه الإيمان والعبادات ، التي هي شرط في ولاية الله . ومن كان يحسن أحياناً ، ويفيق أحياناً ، إذا كان في حال إفاقته مؤمناً بالله ورسوله ، وبؤدى الفرائض ، ويحترز المحارم ، فهذا إذا جن ، لم يكن جنونه مانعاً من أن يثبته الله على إيمانه وتقواه ، الذي أتى به في حال إفاقته ، ويكون له من ولاية الله بحسب ذلك . وكذلك من طرأ عليه الجنون ، بعد إيمانه وتقواه ، فإن الله يثبته ويأجره على ما تقدم من إيمانه وتقواه ، ولا يحبطه بالجنون الذي ابتلى به من غير ذنب فعله ، والقلم مرفوع عنه في حال جنونه .

فعلی هذا ، فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدى الفرائض ، ولا يحترز المحارم ، بل قد يأتي بما يناقض ذلك ، لم يكن لأحد أن يقول : هذا وليّ الله ، فإن هذا إن لم يكن مجنوناً ، بل كان

متولهاً من غير جنون، أو كان يغيب عقله بالجنون تارة، ويفيق أخرى، وهو لا يقوم بالفرائض بل يعتقد أنه لا يجب عليه اتباع الرسول ﷺ، فهو كافر؛ وإن كان مجنوناً باطنياً وظاهراً قد ارتفع عنه القلم. فهذا وإن لم يكن معافياً عقوبة الكافرين، فليس هو مستحقاً لما يستحقه أهل الإيمان والتقوى من كرامة الله عز وجل، فلا يجوز على التقديرين أن يعتقد فيه أحد أنه وليّ الله، ولكن إن كان له حالة في إفاقته كان فيها مؤمناً بالله متقياً، كان له من ولاية الله بحسب ذلك، وإن كان له في حال فيه كفر أو نفاق، أو كان كافراً أو منافقاً ثم طرأ عليه الجنون، فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه، وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق.

فصل

وليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات، فلا يتميزون بلباس دون لباس، ولا بخلق شعر أو تقصيره أو ضفره، إذا كان كلاهما مباحاً، كما قيل: كم من صديق في قباء، وكم من زنديق في عباء. بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور، فيوجدون في أهل القرآن، وأهل العلم، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف، ويوجدون في التجار والصناع والزراع. وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم (القراء) فيدخل فيهم العلماء والنسك. ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء واسم (الصوفية)، نسبة إلى لباس الصوف. هذا هو الصحيح، وقد قيل إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء وقيل إلى (صوفة بن أد) قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنسك، وقيل إلى أهل الصفا، وقيل إلى الصفوة، وقيل إلى الصفة، وقيل إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى. وهذه أقوال ضعيفة فإنه لو كان كذلك لقليل: صفي، أو صفائي، أو صُفي، ولم يقل صوفي. وصار أيضاً اسم الفقراء يعني به أهل السلوك، وهذا عرف حادث وقد تنازع الناس: أيما أفضل: مسمى الصوفي

أو مسمى الفقير ؟ ويتنازعون أيضاً : أيما أفضل ؟ الفنى الشاكر ، أو الفقير الصابر ؟ والصواب فى هذا كله ما قاله تبارك وتعالى ^(١) : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) . وفى الصحيح ^(٢) من أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه سئل : أى الناس أفضل ؟ قال : أتقاهم . فدل الكتاب والسنة على أن أكرم الناس عند الله أتقاهم . وفى السنن ^(٣) عن النبي ﷺ أنه قال : لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسودى على أبيض ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى . وعنه أيضاً ﷺ أنه قال ^(٤) : إن الله تعالى أذهب عنكم عبية ^(٥) الجاهلية ونفخها بالآباء . الناس رجلان : مؤمن تقى ، وفاجر شقى .

فصل

وليس من شرط ولّى الله أن يكون ممصوما لا يغلط ولا يخطئ ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين ، حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ، مما نهى الله عنه . ويجوز أن يظن فى بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى ، وتسكون من الشيطان ألبسها عليه ، لنقص درجته ، ولا يعرف أنها من الشيطان ، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان

(١) [٤٩ / الحجرات / ١٣] . (٢) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ،

٨ - قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، حديث رقم ١٥٨٧ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٦٨ (طبعنا) .

(٣) لم أفتد إلى هذا الحديث فى السنن . ولكن وجدته فى مسند الإمام أحمد بالصفحة

رقم ٤١١ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) . (٤) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ - كتاب

الأدب ، ١١١ - باب فى التفاخر بالأحساب ، حديث رقم ٥١١٦ .

(٥) العيبة بضم العين وكسر ها . الكبر والفخر والنخوة . اه قاموس .

وما استكروها عليه ولم يؤثم النبي ﷺ المجتهد المخطئ ، بل جعل له أجرا على اجتهداده ، وجعل خطاه مغفورا له . ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط ، لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي الله ، إلا أن يكون نبيا ، بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه ، إلا أن يكون موافقا ، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاماً ومحادثة وخطاباً من الحق ، بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ ، فإن وافقه قبله وإن خالفه لم يقبله ، وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف توقف فيه . والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف : طرفان ووسط . فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي الله وافقه في كل ما يظن أنه حدثه به قلبه عن ربه ، وسلم إليه جميع ما يفعله . ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع ، أخرجه عن ولاية الله بالكلية ، وإن كان مجتهدا مخطئاً ، وخيار الأمور أوساها . وهو ألا يجعل معصوما ولا مأثوما ، إذا كان مجتهدا مخطئاً ، فلا يتبع في كل ما يقوله ، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهداده . والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله . وأما إذا خالف قول بعض الفقهاء ، ووافق قول آخرين ، لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ، ويقول : هذا خالف الشرع !

وفي الصحيحين^(١) عن النبي ﷺ أنه قال : قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن كان في أمتي أحد ، فعمر منهم . وكان عمر يقول : افتر بوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنه يتجلى لهم أمور صادقة . والمحدث الذي يأخذ عن قلبه أشياء ، ليس بمعصوم ، فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي ﷺ المعصوم . ولهذا كان عمر رضي الله عنه يشاور الصحابة وبنظرهم ويرجع إليهم في بعض الأمور ، وينازعونه في أشياء فيحتاج عليهم ، ويحتاجون عليه بالكتاب والسنة ، ويقرهم على منازعته ، ولا يقول لهم : أنا محدث ملهم

(١) أخرجه البخاري في : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ٦ - باب مناقب عمر بن الخطاب ، أبي حفص القرشي المدوي رضي الله عنه ، حديث رقم ١٦٢٨ ، عن أبي هريرة . وأخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٢٣ ، عن عائشة (طبعنا) .

مخاطب فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تمارضوني . فأني من ادعى له أصحابه أنه ولي الله ، وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله ولا يمارضوه ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة - فهو وهمٌ مخطئون . ومثل هذا من أضل الناس . فعمر بن الخطاب رضى الله عنه أفضل منه ، وهو أمير المؤمنين ، وكان المسلمون ينازعونه ويمرضون ما يقول ، هو وهم ، على الكتاب والسنة . وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، إلا رسول الله ﷺ ، وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم . ولذا قال الجنيد : علما هذا مقيد بالكتاب والسنة . وقال أبو عثمان النيسابورى : من أتمر السنة على نفسه قولاً وفعلًا نطق بالحكمة ، ومن أتمر الهوى على نفسه قولاً وفعلًا نطق بالبدعة ، لقوله تعالى^(١) : (وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) . وقال أبو عمرو بن نجيد : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل .

فأولياء الله تعتبر بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة ، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن ، وبحقائق الإيمان الباطنة ، ومثرائع الإسلام . فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التي يحجبها الشيطان ؛ أو يأوى إلى الحماقات والحشوش التي تحضرها الشياطين ، أو يأكل الحيات والمقارب والزناير وآذان الكلاب التي هي خبائث وفواسق . أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحجبها الشيطان . أو يدعو غير الله ، فيستغني بالخلاوقات ، ويتوجه إليها ، أو يسجد إلى ناحية شيخه ، ولا يخلص الدين لرب العالمين . أو يلبس الكلاب أو النيران ، أو يأوى إلى المزابل ، والمواقع النجسة ، أو يأوى إلى المقابر ، لا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين ، أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ، ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار ، ويؤثر سماع منامير الشيطان ، على سماع كلام الرحمن ، فهذه علامات أولياء الشيطان ، لا علامات أولياء الرحمن - انتهى ملخصاً -

(١) [٢٤ / النور / ٥٤] .

والكتاب مما يلزم الوقوف عليه ، ومطالعة بالحرف . ففيه من الفوائد ما لا يوجد في غيره ،
فرحم الله جامعه ، وجزاء خيراً . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا، هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » تسليية للنبي ﷺ عما كان يسمعه من تأمرهم في إيصال مكروهه له ، ومجاهرتهم بتكذيبه ، ورميه بالسحر ونحوه
أى : لا تتأثر بقولهم ، وشاهد عز الله وقهره ، لتنظر إليهم بنظر القناء وترى أعمالهم وأقوالهم ،
وما يهددونك به كالمباء . فمن شاهد قوة الله وعزته يرى كل القوة والعزة له ، لا قوة لأحد
ولا حول . فقوله تعالى ^(١) (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ) تعليل للنهي على طريقة الاستئناف ، كأنه
قيل : مالى لا أحزن ؟ فقيل : إن العزة لله ، أى الغلبة والقهر فى ملكته وسلطانه ، لا يملك
أحد شيئاً منها أصلاً ، لا هم ولا غيرهم ، فهو يغلبهم ، وينصرك عليهم (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ
أَنَا وَرُسُلِي) ^(٢) (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا) ^(٣) . وقوله (هُوَ السَّمِيعُ) أى لأقوالهم فيك ،
فيجازيهم (الْعَلِيمُ) أى لما ينبغى أن يفعل بهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ، إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

« أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ » أى كلهم تحت ملكته وتصرفه
وقهره ، لا يقدرُونَ على شئ . بغير إذنه ومشيئته وإقداره إياهم . وقوله « وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » تأكيد

(١) [٤ / النساء / ١٣٩] . (٢) [٥٨ / المجادلة / ٢١] . (٣) [٤٠ / غافر / ٥١] .

لما سبق من اختصاص العزة به تعالى ، لتزيد سلوته صوات الله عليه وبرهان على بطلان ظنونهم وأقوالهم المبنية عليها . وفي (ما) من قوله (وما يتبع) وجهان :

أحدهما - أنها نافية ، و (شركاء) مفعول (يتبع) ومفعول (يدعون) محذوف لظهوره .
أى ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، شركاء فى الحقيقة ، وإن سموها شركاء لجهلهم ،
فاقتصصر على أحدهما لظهور دلالة على الآخر . ويجوز أن يكون (شركاء) مفعول (يدعون) ،
ومفعول (يتبع) محذوف ، لانفهامه ، من قوله (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) . أى ما يتبعون
يقيناً ، إنما يتبعون ظنهم الباطل .

والوجه الثانى - أنها استفهامية ، منصوبة بـ (يتبع) ، و (شركاء) مفعول (يدعون) .
أى : أى شئ يتبع هؤلاء ؟ أى : إذا كان الكل تحت قهره وملكوته فما يتبعون من دون
الله ليس بشئ ، ولا تأثير له ولا قوة ، إن يتبعون إلا ما يتوهمونه فى ظنهم ، ويتخيلونه فى
خيالهم ، وما هم إلا يُقدِّرون وجود شئ لا وجود له فى الحقيقة .
ثم نبه تعالى على انفراد القدرة الكاملة ، والنعمة الشاملة ، ليدل على توحيده سبحانه
باستحقاق العبادة ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ » أى خلقه لكم لتستقروا فيه من
نصيبكم وكلاكم « وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا » أى مضيئاً ، تبصرون فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم .
قيل : الآية من باب الاحتمال ، والتقدير : جعل الليل مظلاً لتسكنوا فيه ، والنهار مبصراً
لتنحروا فيه لمصالحكم ، لحذف من كل من الجانبين ما ذكر فى الآخر ، اكتفاء بالذكور
عن المتروك ، وإسناد الإبصار إلى النهار مجازى ، كقوله : * ما ليل الحب بنائم *

« إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى الجمل المذكور « لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ » أى هذه الآيات ونظائرها ،
سماع تدبر واعتبار .

ثم شرع فى نوع آخر من أباطيلهم بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ الْغَنِيُّ ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ ، إِنَّ عِنْدَ كُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)
« قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ » تنزيه له عن أن يجانس أحدا ، أو يحتاج إليه ،
وتعجب من كلمتهم الحمقاء « هُوَ الْغَنِيُّ » أى الذى وجوده بذاته ، وبه وجود كل شيء ،
فكيف يماثله شيء ؟ ومن له الوجود كله ، فكيف يجانسه شيء ؟ والجملة علة لتنزيهه ،
وإيدان بأن اتخاذ الولد من أحكام الحاجة ، إمالة تقوى به ، أو لبقاء نوعه « لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ » تقرير لغناه . أى فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولداً « إِنَّ
عِنْدَ كُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا » أى : ما عندكم من حجة بهذا القول الباطن ، توضيح
لبطلانه ، بتحقيق سلامة ما أقیم من البرهان الساطع عن المعارض . أى ليس بعد هذا حجة
تسمع . والمراد تجهيلهم ، وأنه لا مستند لهم سوى تقليد الأوائل ، واتباع جاهل الجاهل .

تنبيه :

دلت الآية على تسمية البرهان سلطاناً .

قال الإمام ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة) : إنه سبحانه سى الحجة العالمية سلطاناً .
قال ابن عباس رضى الله عنه : كل سلطان فى القرآن فهو حجة ، وهذا كقوله تعالى :
(إِنَّ عِنْدَ كُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا » ، يعنى ما عندكم من حجة بما قلتم ، إن هو لإقول على الله
بلا علم . وقوله تعالى ^(١) : (إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

(١) [٥٣ / النجم / ٢٣] .

رَبِّهَا مِنْ سُلْطَانٍ) ، بمعنى ما أنزل بها حجة ولا برهاناً ، بل هي من تلقاء أنفسكم وآبائكم . وقوله تعالى : (أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ) ، يعني حجة واضحة . إلا موضعاً واحداً اختلف فيه ، وهو قوله : (مَا أَغْنَىٰ عَنْنَا مَالِيهِ * هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ) ، فقيل : المراد به القدرة والملك ، أى ذهب عنى مالى وملكى ، فلا مال لى ولا سلطان . وقيل : هو على بابه ، أى انقطعت حجتي وبطلت ، فلا حجة لى . والمقصود : أن الله سبحانه سعى علم الحجة سلطاناً ، لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره ، فله بها سلطان على الجاهلين ، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد ، ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن . فالحجة تأسر القلب وتقوده ، وتذل المخالف ، وإن أظهر العناد والمكابرة ، فقلبه خاضع لها ذليل ، مقهور تحت سلطانها . بل سلطان الجاه ، إن لم يكن معه علم يساس به ، فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها، قدرة بلا علم ولا رحمة ، بخلاف سلطان الحجة ، فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة، ومن لم يكن له اقتدار فى علمه ، فهو إما لضعف حقيقته وسلطانته ، وإما لقهر سلطان اليد والسيوف له ، وإلا فالحجة ناصرة نفسها ، ظاهرة على الباطل قاهرة له - انتهى - .

« أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَالًا تَعْلَمُونَ » توبيخ وتقريع على جهلهم . قال الزمخشري : لما نفي عنهم البرهان ، جعلهم غير عالمين ، فدلّ على أن كل قول لا برهان عليه اقائله ، فذاك جهل وليس بعلم .

وقال أبو السمود : فيه تنبيه على أن كل مقالة لا دليل عليها ، فهي جهالة ، وأن العقائد لا بد لها من برهان قطعى ، وأن التقليد بمنزل من الاعتداد به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ)

[٧٠] (مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْذِرُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

« قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » باتخاذ الولد ، وإضافة الشركاء « لَا يُفْلِحُونَ » أى لا يفوزون بمطلوب أصلاً . « مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا » مبتدأ خبره محذوف ، أى لهم تمتع يسير في الدنيا « ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ » أى بالموت « ثُمَّ نُنْذِرُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » أى بسبب كفرهم . والآية لبيان أن ما يتراءى من فوزهم بالخطوطة الدنيوية ، بمنزل من أن يكون من جنس الفلاح . كأنه قيل : كيف لا يفلحون ، وهم في غبطة ونعيم ؟ فقيل : هو متاع يسير في الدنيا ، وليس بفوز بالمطلوب .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ

مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ

ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ)

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ » أى خبره الذى له شأن وخطر ، مع قومه المغترين بمرزة الأموال والأعوان ، ليتدبروا ما فيه من صحة توكله على الله ، ونظره إلى قومه ، بمن عدم المبالاة بهم ، وبمكايدهم ، وزوال ما تمتعوا به من النعيم ، بإغراقهم بالطوفان ، فلملهم يكفون عن كفرهم ، وتلين أفئدتهم ، ويستيقنون صحة نبوتك « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّ كَانَ كَبُرَ » أى شق وثقل « عَلَيْكُمْ مَقَامِي » أى مكاني ، يعنى نفسه ، أو مكثى بين أظهركم مدداً

طوالاً، ألف سنة إلا خمسين عاماً أو قياماً بالدعوة إلى الله، من رؤيتكم ذاتي بقلة الأموال والأهوان ، ومنع عزتكم بهما عن الانقياد لي « وَتَذَكِّرِي بآيَاتِ اللَّهِ » أي بحججه وبراهينه ، أو تخويفي بعذابه « فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ » أي اعتمدت في دفع ما قصدتموني به « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ » أي شأنكم في إهلاكى « وَشُرَكَاءُكُمْ » يعنى آلهتهم . وهو تهكم بهم ، أو نظراءهم في الشرك . (والواو) بمعنى مع . أو معطوف على (أمركم) بحذف المضاف ، أى : وأمر شركائكم . أو منصوب بمحذوف ، أى ادعو شركاءكم ، وذلك لأن (أجمع) يتعلق بالمعاني . يقال : (أجمع الأمر إذا نواه وعزم عليه) « ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً » أى مستوراً . من (غمه ، إذا ستره) بل مكشوفاً تجاهرونى به « ثُمَّ أَفْضُوا إِلَيَّ » أى أدوا إلى ذلك الأمر الذى تريدون بى « وَلَا تَنْظُرُونِ » أى ولا تعملونى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

« فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ » أى عن الإيمان بما جئتكم به « فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ » أى جمل على عظمتكم ، أى فلا باع لى التولى والنفور « إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ » أى ما توابى على التكبر إلا عليه تعالى ، يثيبنى به ، آمنتم أو توليتم « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » أى المسلمين له وحده بالإيمان به ، ونبذ كل معبود دونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)

« فَكَذَّبُوهُ » يعنى نوحاً بما جاءهم ، عناداً بعد أن قامت عليهم الحجة ، خفت عليهم كلمة العذاب ، وأرسل عليهم الطوفان ، « فَجَعَلْنَاهُ » أى من الفرق « وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ »

وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ « أى خلفاء عن المغرّفين وعمار الأرض » وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ « أى منتهى أمرهم . والمراد به (المنذرين) المكذبين . والتعبير به إشارة إلى إصرارهم عليه ، حيث لم يفد الإنذار فيهم . وقد جرت السنة الربانية أن لا يهلك قوم بالاستئصال إلا بعد الإنذار ، لأن من أنذر فقد أعذر . وفى الأمر بالنظر تهويل لما جرى عليهم ، وتحذير لمن كذب الرسول ﷺ ، وتسليمة له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَبَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ، كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ) « ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد نوح « رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ » يعنى هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً ، « فَبَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ » أى الآيات الدالة على صدقهم ، المفيدة هدايتهم « فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ » أى بسبب تعودهم تكذيب الحق ، وتغرّهم عليه . لأنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية ، مكذبين بالحق ، فخالهم بعدها ، فخالهم قبلها . هذا على أن ضمير (كانوا) و(كذبوا) لقوم الرسل . وَجَازَ عَوْدُ ضمير (كانوا) لقوم الرسل ، و(كذبوا) لقوم نوح . أى ما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح أى بمثله . « كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ » أى المجاوزين مقتضيات حقائق الأشياء ، بخذلانهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) « ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ » أى من بعد هؤلاء الرسل « مُوسَىٰ وَهَارُونَ » إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ

وَمَلَكِهِ بِآيَاتِنَا» يعنى التسع « فَاسْتَكَبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ » أى كفاراً ذوى آثام عظام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ)

« فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا » يعنى الآيات المزيحة للشك « قَالُوا » يعنى من فرط التمرد « إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ » أى تلبيس ظاهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ، أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ)

« قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ » أى على وجه لم يترك لكم شبهة ، مقاتلتكم الحق ، من أنه سحر ، فحذف المحكى المقول لدلالة الكلام عليه . ثم قال : « أَسِحْرٌ هَذَا » استفهام إنكار من قول موسى لامن قولهم . فهو مستأنف لإنكار كونه سحراً ، وتكذيب لقولهم ، وتوبيخ لهم على ذلك إثر توبيخ . وليس (أَسِحْرٌ هَذَا) مقولهم ، لأنهم بقوا القول بأنه سحر ، فكيف يستفهمون عنه ؟ - كذا قيل - .

ولا أرى مانعاً من أن يكون مقولهم ، والهمزة وسط مزيدة لتكون مؤكدة لما قبلها من الاستفهام ، ومن لطائفها الاحتراس عن إيهام فاعلية سحر لـ (جَاءَكُمْ) بادى بدء . وأسلوب القرآن فوق كل أسلوب . أو الهمزة ومدخولها من مقولهم الأول ، حين فوجئوا بخارقة موسى ، وقولهم المذكور قَبْلُ (إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ) حكاية لقولهم الذى بقوا عليه أمرهم . ثم رأيت الناصر فى (الاتيصال) أشار لهذا حيث قال :

وأما القراءة الثانية - يعنى قراءة آالسحر - على الاستفهام ، ففيها - والله أعلم - إرشاد إلى أن قول موسى أولاً : (أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا) حكاية لقولهم ، ويكون

(أَسِحْرٌ هَذَا) هو الذى قالوه . ولا يناقض ذلك حكاية الله عنهم أنهم قالوا « إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ » ، وذلك إما لأنهم قالوا الأمرين جميعاً : بدأوا بالاستفهام على سبيل الاستهتار بالحق والاستهزاء بكونه حقاً ، والاستهزاء بالحق إنكار له بل قد يكون الاستفهام فى بعض المواطن أبت من الإخبار . ألا ترى أنهم يقولون فى قوله : * أَنْتِ أُمُّ سَالِمٍ * أبلغ فى البت من قوله مخبراً (أَنْتِ أُمُّ سَالِمٍ) . ثم ثنوا بصيغة الخبر الخاصة ببيت الإنكار ، ودعوى أنه سحر ، فقالوا : (إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ) ، فحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثانى ، ووبخهم موسى على قولهم الأول . ومعنى العبارتين ومآلهما واحد . وإما ألا يكونوا قالوا سوى : (أَسِحْرٌ هَذَا) على سبيل الإنكار حسبما تقدم ، فحكاية الله تعالى عنهم بمآله ؛ لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الإنكار ، وبت القول أنه سحر ، وحكى موسى عليه السلام قولهم بلفظه ، ولم يؤده بمباراة أخرى . وحكاية القصص الثلاثة فى السكتاب العزيز بصيغ مختلفة ، لا تحمل لها سوى أنها معان مفقولة إلى اللغة العربية ، فيترجم عنها بالألفاظ المترادفة المتساوية المعانى . وحاصل هذا البحث أن قول موسى عليه السلام (أنقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) إنما حكى فيه قولهم ، ويرشد إلى ذلك أنه كافأهم عند ما أتوا بالسحر بمثل مقالهم مستفهماً فقال : ما جئتم به آلسحر (على قراءة الاستفهام) قرضاً بوفاء على السواء . والذى يحقق لك أن الاستفهام والإخبار فى مثل هذا المعنى مؤداها واحد ، أن الله تعالى حكى قول موسى عليه السلام (ما جئتم به السحر) على الوجهين : الخبر والاستفهام ، على ما اقتضته القراءة ثان وهو قول واحد ، دل أن مؤدى الأمرين واحد ، ضرورة صدق الخبر . وإنما حمل الزمخشري على تأويل القول بالتعقيب ، أو إضمار مفعول (تقولون) استشكل وقوع الاستفهام ، حكياً بالقول ، والمحكى عنهم الخبر . وقد أوضحنا أنه لا تنافر ولا تنافي بين الأمرين .

قال الناصر : فشدّ بهذا الفصل عرى التمسك ، فإنه من دقائق الفسكت ، والله الموفق .

وقوله تعالى : « وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ » من كلام موسى قطعاً ، أتى به تقريراً لما سبق ، لأنه لما استلزم كون الحق سحراً ، كون من أتى به ساحراً ، أكد الإنكار السابق ، وما فيه من التوبيخ والتجهيل ، بذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ)

« قَالُوا » أى لموسى « أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا » أى لتصرفنا « عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا » يعنون عبادة الأصنام « وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ » أى الملك والسلطان « فِي الْأَرْضِ » أى أرض مصر « وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ » أى لتبقى عزتنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ااثْنُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)
« وَقَالَ فِرْعَوْنُ » أى حفظاً لعزته وودفعاً لتميز موسى « ااثْنُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ » أى ماهر فى فنه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى اأَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ)
« فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى اأَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ » أى من أصناف السحر . قال بعضهم : جواز الأمر بالسحر لدحضه ، وكذلك طلب إيراد الشبه لتحل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)

« فَلَمَّا أَلْقَوْا » أى عصيهم وحبالهم أيضاًها معجزة موسى بمصاه « قَالَ مُوسَى »

مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ « أى هو السحر ، لاما جئتمكم به مما سمعتموه سحراً » « إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ »
أى سيمحقه بالسكية بمعجزتى ، فلا يبق له أثر « إِنَّ اللَّهَ لَا يُضْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ » أى
بل يسلط عليه الدمار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

« وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ » أى يثبت ويقرّيه بها « وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » أى
ذلك . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَمَا أَمَّنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ
أَنْ يَفْتَنَهُمْ ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ)

« فَمَا أَمَّنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ » معطوف على مقدر معلوم من مواقع آخر ،
أى (١) « فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ » الخ . قيل : الضمير من (قومه) لفرعون ،
وهم ناس يسير من قومه ، آمنوا به سرّاً . والأظهر أنهم قوم موسى ، وهم بنو إسرائيل ،
الذين كانوا بمصر من أولاد يعقوب ، فهم الذين آمنوا به « عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ
أَنْ يَفْتَنَهُمْ » أى يمدبهم « وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ » أى مستكبر « فِي الْأَرْضِ » أى أرض
مصر « وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ » أى المتجاوزين الحد بالظلم والفساد ، وبإدعاء الربوبية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ
مُسْلِمِينَ)

« وَقَالَ مُوسَى » أى تطمينا لقلوبهم ، وإزالة للخوف عنهم « يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ

فَعَلَيْكُمْ تَوَكَّلُوا » أى فإليه أسندوا أصركم فى العصمة مما تخافون ، وبه ثقوا ، فإنه كافىكم
(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) ^(١) وقوله : « إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ أَى مخلصين
وجوهكم له .

قال القاشانى : جمل التوكل من لوازم الإسلام ، وهو إسلام الوجه لله تعالى ، أى إن
كل إيمانكم وبقينكم ، بحيث أثر فى نفوسكم ، وجعلها خالصة لله ، لزم التوكل عليه ؛
وإن أريد (الإسلام) بمعنى الانقياد ، كان شرطاً فى التوكل ، لا ملازوما له . وحينئذ يكون
معناه : إن صح إيمانكم بيقيناً فعليه توكلوا ، بشرط أن تكونوا منقادين . كما تقول : إن
كرهت هذا الشجر فاقلمه إن قدرت - انتهى - .

وقال الكرخى : قوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) أى منقادين لأمره . فقوله :
(فَعَلَيْكُمْ تَوَكَّلُوا) جواب الشرط الأول . والشرط الثانى وهو (إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ)
شرط فى الأول . وذلك أن الشرطين متى لم يترتبا فى الوجود ، فالشرط الثانى شرط فى الأول .
ولذلك لم يجب تقديمه على الأول . قال الفقهاء : المتأخر يجب أن يكون متقدماً ، والمتقدم
يجب أن يكون متأخراً . مثاله : قول الرجل لامرأته : إن دخلت الدار فأنت طالق إن كلمت
زيداً . فجموع قوله : (إن دخلت الدار فأنت طالق) مشروط بقوله (إن كلمت زيدا) والشروط
متأخر عن الشرط ، وذلك يقتضى أن يكون المتأخر فى اللفظ ، متقدماً فى المعنى ، وأن يكون
المتقدم فى اللفظ ، متأخراً فى المعنى . فكأنه يقول لامرأته : حال ما كلمت زيدا إن دخلت
الدار فأنت طالق . فلو حصل هذا المعلق قبل إن كلمت زيدا لم يقع الطلاق . فقوله تعالى :
(إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ ...) الخ يقتضى أن يكون كونهم مسلمين ، شرطاً لأن يصيروا مخاطبين
بقوله (إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْكُمْ تَوَكَّلُوا) فكأنه تعالى يقول للمسلم حال إسلامه :
إن كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل . والأمر كذلك ، لأن الإسلام عبارة عن الاستسلام ،

(١) [٦٥ / الطلاق / ٣] .

وهو الانقياد لتكاليف الله ، وترك التمرد والإيمانُ عبارة عن معرفة القلب بأن واجب الوجود لذاته واحد ، وما سواه محدث تحت تدبيره وقهره . وإذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره إليه تعالى ، ويحصل في القلب نور التوكل على الله تعالى . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى موضع فتنة لهم ، أى عذاب يمدبوننا ويفتنوننا عن ديننا . قال الحاكم : دلت على حسن السؤال بالفتنة من الظلمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

« وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » أى من كيدهم ، ومن شؤم مشاهدتهم ، والعبودية لهم .

قال القاضي : وفى تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي له أن يتوكل أولاً ، لتجانب دعوته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

« وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا » أى اتخذها بها بيوتاً مباءة تلازمونها لتجتمع كلمتكم فى شأنكم « وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً » أى مصلى « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى فى بيوتكم . قال بعضهم : كانوا خائفين . وفى ذلك دلالة على جواز كتم الصلاة عند الخوف . « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » أى بالنصرة فى الدنيا ، والجنة فى العقبى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

« وَقَالَ مُوسَىٰ » أى يدعو الله تعالى في إذهاب غزوة فرعون « رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً » أى ما يزين به من اللباس والمراكب والحلى « وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ » أى بالتكبر عاينك وعلى آياتك ورسلك . وقوله : (لِيُضِلُّوا) متعلق بـ (آتَيْتَ) ، وأعيد (رَبَّنَا) توكيداً . و (لَام) (لِيُضِلُّوا) لام العاقبة والصورورة . أى : آتيتهم النعم المذكورة ليذكروها ويتبعوا سبيلك ، فكان عاقبة أمرهم أنهم كفروا وضلوا عن سبيلك . وتجوزُ جمل اللام للعلة استدرجاً . أو لام الدعاء عليهم بذلك - توسع في غير متسع ، ونبت عن لطف المساق وسره ؛ فإن موسى لما رأى القوم مصرين على الكفر والعتاد أخذ في الدعاء عليهم ، ومن حق من يدعو على الغير أن يقدم بين يدي دعائه ما دفعه واضطره إلى الإتهال ، لتحقيق إجابته . ولذا ، بين أولاً ضلالهم عن السبيل بكفرانهم للنعم ، وعتوهم على المحسن بها تمهيداً لقوله : « رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ » أى أهلكها ، لأنهم يستمعون بنعمتك على معصيتك وأصل (الطمس) محو الأثر والتغيير « وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى اجعلها قاسية ، واطبع عليها ، حتى لا تنشرح للإيمان « فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أى يمانوه ويوقنوا به ، بحيث لا ينقهم ذلك إذ ذاك . وقوله : (فَلَا يُؤْمِنُوا) جواب للدعاء ، أو دعاء بلفظ النهي .

قال ابن كثير : هذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام ، غضباً لله ولدينه على فرعون وملائته الذى تبين له أنه لا خير فيهم ، ولا ينجى منهم شيء . كما دعا نوح عليه السلام

فَقَالَ^(١) : (رَبُّ لَا تَذَرُنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَبَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَظْلُمُونَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) . ولهذا استجاب تعالى لموسى فيهم هذه الدعوة التي شرَكَ فيها أخوه هارون ، كما أخبر بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

« قَالَ » تعالى « قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا » أى على أمرى ، ولا تمجلا ، فإن مطلوبكما كائن فى وقته لا محالة « وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى فى الاستمجال ، أو عدم الوثوق بوعده تعالى ، أو يعنى فرعون وقومه ، بقوله سبحانه :

ثم أشار تعالى إلى إجابته دعاءها فى إهلاك فرعون وقومه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا

حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَإِمْنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَإِمْنْتُ بِهِ

بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

« وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ » أى لحقهم « فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا » أى لأجل البغى عليهم والاعتداء « حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ » رجو النجاة من الغرق « ءَإِمْنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَإِمْنْتُ بِهِ » بنو إسرائيل وأنا من المسلمين « وذلك أن موسى عليه السلام لما رغب إلى فرعون أن يطلق الإسرائيليين من عبوديته ، ويأذن لهم بالسراح إلى فلسطين ليمبدوا ربهم ، أبى وتمرد ، فضر به الله وقومه بالآيات التسمع ، كما

تقدم في سورة (الأعراف) ، فأذن لموسى وشعبه بالخروج من مصر ، فارتحل بنو إسرائيل جميعاً بمواشيهم وأثاثهم ، ثم ندم فرعون وملؤه على إطلاقهم من خدمتهم ، فاشتد فرعون وجنوده في أثرهم يريدونهم ، فأدركهم وهم نازلون عند البحر ، فهرب الإسرائيليون من مقدمه ، وضجوا إلى موسى ، فسكن روعهم ، وأعلمهم ما يشاهدون من نجاتهم ، وهلاك عدوهم ، وأوحى تعالى إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر ، فانشق ودخل بنو إسرائيل في وسطه على اليبس الذي جعله تعالى آية كبرى ، ونفذوا منه إلى شاطئه ، وتبعهم فرعون وجنوده . حتى إذا توسطوا البحر ، مد موسى يده على البحر ، فارتد إلى ما كان عليه ، وغرق فرعون بمن معه . ولما أحس بالفرق ، لاذ إلى الإيمان يبغي النجاة ، ف قيل له :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (إِنَّا لَنَاقِلُونَكَ إِلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) «وَكَانَ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الْقِيَامِ»

« إِنَّا لَنَاقِلُونَكَ إِلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » أي تؤمن وتسلم لتنجوا من الفرق « وَكَانَ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الْقِيَامِ » أي كُفِّرَتْ مِنَ الْفُسْطَاتِ « وَكَانَ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الْقِيَامِ » أي بالضللال والإضلال ، والظلم والعقو .

القول في تأويل قوله تعالى .

[٩٢] (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً) «وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ»

« فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ » أي نخرجك من البحر بحسدك الذي لا روح فيه . فرآه بنو إسرائيل ملقى على شاطئ البحر ميتاً وفي التعبير عن إخراجهم من القعر إلى الشاطئ (بالنجية) التي هي الخلاص من المكروه ، تهكم واستهزاء . « لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ » من الأمم الكافرة « آيَةً » أي عبرة من الطغيان والتمرد على أوامره تعالى . « وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ » أي لا يتفكرون فيها ولا يعقبون بها .

تنبيه :

قال الشهاب الحفاجي في (العناية) : لا يقبل إيمان المرء حال اليأس والاحتضار ، كما يدل عليه صريح الآية^(١) : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا » . وأما ما وقع في (الفصوص) من صحة إيمانه ، وأن قوله (ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ) إيمان بموسى عليه السلام - فمخالف للنص والإجماع ، وإن ذهب إلى ظاهره الجلال الدواني رحمه الله . وله رسالة فيه طالعها ، وكنت أتعجب منها حتى رأيت في (تاريخ حلب) للفاضل الحلبي أنها ليست له ، وإنما هي لرجل يسمى محمد بن هلال النحوي . وقد ردها القزويني ، وشنع عليه وقال : إنما مثاله مثال رجل حامل الذكر ، لما قدم مكة بال في زمزم ليشتهر بين الناس ، كافي المثل (خالف تعرف) وفي (فتاوى ابن حجر رحمه الله) أن بعض فقهاءنا كفر من ذهب إلى إيمان فرعون ولذا قيل : إن المراد بفرعون (في كلامه) النفس الأمارة ، وهذا كله مما لا حاجة إليه - انتهى كلام الشهاب - .

أقول : ذكر شيخنا العطار رحمه الله في كتابه (الفتح المبين في رد اعتراض المعارض على محي الدين) خاتمة في بطلان ما نسب إلى هذا المعارف من القول بصحة إيمان فرعون ونجاته ، قال رحمه الله :

ليعلم أنه شاع فيما بين أهل العلم بأن حضرة محي الدين رضي الله عنه قال بإيمان فرعون ونجاته . والحال أنه ليس كذلك ، كما ستطلع عاينه من النقل عنه . نعم ، بحث في صحة القول بإيمان فرعون ، ونجاته وعدمها ، حيث الأخذ من الآيات القرآنية ، فكان ذلك منه مجرد بحث في الدليل لا غير ، وما كان هذا قولاً بإيمانه قطعياً . وقد بنى مسألة نجات فرعون وإيمانه على أصليين من أصوله ، وافقه عليهما جم غفير من العلماء الأعلام .

الأصل الأول - في بيان حقيقة إيمان اليأس ، فإيمان اليأس عنده ، وعند جم غفير من

(١) [٤٠ / غافر / ٨٥] .

العلماء هو ما كان عند مشاهدة العذاب البرزخي ، كحال المحتضر لا غير ، ففي هذه الحالة لا ينفع الإيمان ، وهذا متفق عليه بين أهل العلم . وذهب قوم إلى أن إيمان اليأس ما كان عند رؤية العذاب دنيوياً أو أخروبياً . فالإيمان في أى حالة من الحالتين لا ينفع . وعند هذا المعارف وجماعة : أن رؤية العذاب الدنيوى لا تمنع صحة الإيمان ، وإن أوجبت الهلاك في الدنيا ، فإن سنة الله قاضية بأن يتحتم وقوع الهلاك الدنيوى لمن رأى هذا العذاب ، وإن آمن ونجا من عذاب الآخرة ، إلا قوم يونس ، فإنه تعالى نجاهم منه ، كما ذكره تعالى .

الأصل الثانى - من أصوله رضى الله عنه : أن من حقت عليه الكلمة لا يتلفظ بمادة الإيمان بقصد الإيمان ، وإن تلفظ بها لا يقصده ، فلا بد من تكذيب الله تعالى له ، ولو بالحكاية عنه ، كما قال تعالى ^(١) : (وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ) وكما قال ^(٢) : (فَأَتَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنًا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا) فكذبهم تعالى في دعواهم . وهذا الأصل مأخوذ من قوله تعالى ^(٣) : (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) فكلمة « حَتَّىٰ » للغاية . فغياً تعالى إيمانهم إلى حين رؤية العذاب الأليم ، وهو الأخرى لا غير ، فإنه هو الذى يوصف بالأليم . ونفى تعالى عنهم وقوع الإيمان قبل ذلك ، فوقعه منهم قبله قصدا ، محال بنص هذه الآية .

إذا تقرر هذان الأصلان ، فلنرجع إلى ما قاله هذا الخبر في شأن فرعون في (الفتوحات المكية) وفي (الفصوص) : فالذى ذكره في (الفتوحات) عند ذكره طبقات أهل النار فيها : هو أن فرعون من أهل النار ، حيث قال في هذا البحث : كفرعون وأضرابه ، نفخص له ولهم من النار طبقة مخصوصة يؤبدون فيها . وأشار إلى كفره في موضع آخر منها عند ذكره هذا الحديث وهو ^(٤) : أعوذ بك منك ؟ قال : استعاذ رسول الله ﷺ من مقام

(١) [٢ / البقرة / ١٤] . (٢) [٤٩ / الحجرات / ١٤] . (٣) [١٠ / يونس / ٩٦ و ٩٧] .

(٤) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٢٢٢ (طبعنا) .

الاتحاد الذى كان عليه فرعون وهو قوله ^(١): (أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى) وعلى هذه الإشارة وما تقدم ، يكون فرعون كافراً عنده ، كما هو عند عامة الخلق . وعلى هذا لا إشكال ولا كلام .

بقى القول على إيمان فرعون ونجاته من حيث الدليل ، وهو مجرد بحث مع الذين ذهبوا إلى كفره قطعياً ، وليس لهم هذا القطع ، لما أن الدليل القرآنى يعطى خلافه؛ قال تعالى (فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ . . .) الآية - فذكر فرعون هنا الإيمان ثلاث مرات : اثنتان فى الجنب الإلهى ، والأخيرة تعمه ، والإيمان بموسى حيث قال : (وأنا من المسلمين) ولم يكن مسلماً إلا من جمع بين الإيمان بالله وبرسوله .

ثم قال شيخنا رحمه الله : وفى (الفتوحات) و (الفصوص) ما حاصله : أن إيمانه لم يكن عند اليأس ، لا على مذهبه ومذهب من وافقه ، ولا على مذهب غيره . أما الأول فلأن إيمانه كان عند رؤية العذاب الدنيوى ، لا عند احتضاره ، والإيمان عند رؤية العذاب الدنيوى لا يعد بأساً عنده ، وعند جمع . وأما على الثانى ، فلأن قول فرعون ما كان عند بأسه من الحياة الدنيوية ، فإنه علم أن من آمن بما آمن به قوم موسى كان له المشاركة فى الطريق اليبس التى كانت للمؤمنين ، وقد شاركهم فى إيمانهم ، فكان الغالب على ظنه أو يقينه المعاملة الخاصة بالمؤمنين ، المشاهدة له ، وما علم سنة الله فى خلقه بأنه لابد من الهلاك الدنيوى إن كانت حالته كذلك . والهلاك فى الدنيا لا يدل على عدم النجاة فى الآخرة ، وهو ظاهر . وعلى هذا فإيمانه لم يكن حال اليأس على المذهبين : فالأول بيقين ، والثانى بحسب ما يظهر ، ولا بعد بأنه كان ظاهراً فى النجاة بيقين ، لعموم المشاركة . هذا ، وإن مذهب هذا العارف الخاص به هو البناء على اتساع الرحمة الإلهية ، والأخذ بالظواهر من الآيات ، ومع ذلك فلما ذكر البحث فى شأن إيمان فرعون ونجاته ، مع من قال بخلافهما ، قال : إن الوقف فى شأن إيمان فرعون هو الأسلم ، لما شاع عند الخلق عامة من شقائه ، وهذا منه صريح فى أنه كان باحثاً فى إيمانه ونجاته من ظاهر اللفظ القرآنى بحثاً ، لا جازماً بهما - انتهى ملخصاً - .

ثم أنبأ تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل إنعمة إنجائهم من عدوهم وإهلاكه ، وإخلاصهم بشكرها وأداء حقوقها بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) « وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ » أضيف المسكان إلى الصديق ، لأن عادة العرب إذا مدحت شيئاً ، أن تضيفه إلى الصديق . تقول : رجل صدق . وقدم صدق . وقال تعالى ^(١) : (مُدْخِلَ صِدْقٍ) و ^(٢) (مُخْرِجَ صِدْقٍ) إذا كان عاملاً في صفة صالحاً للفرص المطلوب منه ، كأنهم لا حظوا أن كل ما يظن به فهو صادق .

وقوله تعالى « وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ » وهي المن والسلوى في التيه وبعده ، مما فاض عليهم من الأرض التي تدر لبناً وعسلاً « فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ » أى ما تفرقوا على مذاهب شتى في أمر دينهم ، إلا من بعد ما جاءهم العلم الحاسم لكل شبهة ، وهو ما بين أيديهم من الوحي ، الذي يتلونه . أى : وما كان حقهم أن يختلفوا ، وقد بين الله لهم ، وأزاح عنهم اللبس . ونظير هذه الآية ، في النعى عليهم اختلافهم ، قوله تعالى ^(٣) : (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ) . وقوله جل ذكره ^(٤) (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) . وفيه أكبر زاجر وأعظم واعظ عن الاختلاف في الدين ، والتفرق فيه .

« إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى فيميز الحق من المبطل بالإنباء والإهلاك .

(١) [١٧ / الإسراء / ٨٠] . (٢) [٩٨ / البينة / ٤] . (٣) [٣ / آل عمران / ١٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

« فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ » من قصص موسى وفرعون وبني إسرائيل فاسأل الذين يقرءون الكتاب « أي التوراة » من قبلك « فإنه عندهم على نحو ما أوحى إليك » لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين « أي الشاكين في أنه منزل من عنده .

تنبيه :

لا يفهم من هذه الآية ثبوت شك له صلوات الله عليه ، فإن صدق الشرطية لا يقتضى وقوعها ، كقولك : (إن كانت الخمسة زوجاً ، كانت منقسمة بمساويين) . والسر في مثلها تكثير الدلائل وتقويتها ، لتزداد قوة اليقين ، وطمأنينة القلب ، وسكون الصدر . ولذا أكثر تعالى في كتابه من تقرير أدلة التوحيد والنبوة والرجمة . أو السر هو الاستدلال على تحقيق ما قص ، والاستشهاد بما في الكتاب المتقدم ، وأن القرآن مصدق لما فيه . أو وصف الأخبار بالرسوخ في العلم ، بصحة ما أنزل إلى رسول الله ، صلوات الله عليه ، تمريضاً بالمشركين . أو تهيج الرسول ، صلوات الله عليه ، وتحريضه ليزداد يقيناً ، كما قال الخليل صلوات الله عليه^(١) (وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي) . وقد روى أنه عليه السلام قال حين نزول الآية : لا أشك ولا أسأل - أخرجه عبد الرازق وابن جرير^(٢) عن قتادة - أو الخطاب عليه السلام ، والمراد غيره ، على حد : (إياك أعتى واسمعى يا جارة) . وفيه من قوة التأثير في القلوب ما لا مزيد عليه ، بمناجاة

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٠] . (٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره بالصفحة رقم ١٦٨

من الجزء الحادى عشر (طبعة الحابى الثانية) .

مالو خاطب سلطان عاملاً له على بلدته بحضور أهلها بوصاياه وأوامره الرهيبة ، فيكون ذلك أفعل في النفوس . أو الخطاب لـكل من يسمع . أى : إن كنت أيها السامع في شك مما نزلنا على لسان نبينا إليك ... وأيد هذا بقوله تعالى بعد^(١) : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ...) فكأنه أشار إلى أن المذكور في أول الآية رمزاً ، هم المذكورون بعد صراحة . وفي الآية تنبيه على أن كل من خالجه شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها ، بمقابلة العلماء المنهين على الحق .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ)
« وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ » هو أيضاً من باب التهميج والإلهاب والتثبيت . وأجرى بعضهم هاهنا قاعدة ، فقال : النهى عن كل شيء ، إن كان لمن تلبس به فعمناه تركه ، وإن كان لغيره فعمناه الثبات على عدمه ، والا يصدر منه في المستقبل كما هنا - انتهى - أو يأتي الوجهان الأخيران قبل هنا أيضاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ)

[٩٧] (وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ « أى قوله الكريم ، وأمره بعذابهم ، كما قال^(٢) : (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَرِثَتِكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) .
« لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أى كذاب آل فرعون وأضرابهم . أى : وعند رؤية العذاب يرتفع التكليف ، فلا ينفعهم إيمانهم .

(١) [١٠ / يونس / ١٠٤] . (٢) [٣٢ / السجدة / ١٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَنْفَعَهَا ءِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا

كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)

« فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ » أى فهلا كانت قرية من القرى المهلكة آمنت قبل معاينة العذاب ، ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينته ، كما فعل فرعون . وفى هذا التخصيص معنى التوبيخ ، « فَنَنْفَعَهَا ءِيمَانُهَا » بأن يقبله الله منها ، ويكشف عنها بسببه العذاب ، « إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ » أى لكن قومه « لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ » أى إلى آجالهم .

هذا ، وقد جوز أن تكون الجملة فى معنى النفي ، لتضمن حرف التخصيص معناه ، فيكون الاستثناء متصلاً ، لأن المراد من القرى أهاليها ، كأنه قال : ما آمن أهل قرية من القرى العاصية فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس . ويؤيده قراءة الرفع على البدل .

روى أن يونس عليه السلام بعثه الله إلى نينوى ، من أرض الموصل ، وكانت مدينة عظيمة ، مسيرة ثلاثة أيام ، وهى قصبة بلاد الآشوريين ، بانيتها أشور أو نينوس بن نمرود ، وكلاهما من أولاد بنى نوح ، وكانت من أقدم مدن العالم وأشهرها . والمؤرخون الوثنيون يصفونها بأن ارتفاع أسوارها كان مائة قدم ، ودائرتها ستون ميلاً ، وهى محصنة بألف وخمسمائة قلعة ، طول الواحدة منهن مائتا قدم . قيل : أهلها كانوا يبلغون نحو ستمائة ألف . وخلفاء نمرود فى هذه المدينة دأبوا على تحسينها ، وتوسيع بنائها . وقويت شوكة الآشوريين فى تلك الأيام حتى خضع لهم أكثر ممالك آسيا ، فتجبروا وتمردوا . وكانوا كلما ظفروا فى غاراتهم يستغرقون فى النهب والمظالم ، فأرسل الله تعالى إليهم يونس عليه السلام ، واسمه فى العبرية (يونان) ، لينذرهم بأنهم لكفرهم واقترافهم الموبقات سيحل بهم العذاب بعد أربعين يوماً ، فتقلب بهم نينوى . ثم خرج يونس من بينهم فأحضر . فلما فقدوه ، وبلغ أميرهم قول يونس ،

تخوفوا نزول العذاب الذي أنذروا به ، فغذف الله في قلب أميرهم الإيمان والتوبة ، فنزل عن عرشه ، وألق عنه حلته ، والتف بمسح ، وجلس على التراب ، وآمن بالله ، وآمن أهل نينوى كلهم ، وأمر أن ينادى بنينوى بالصيام ، فلا يذوق أحد طعاماً ولا شراباً ، وألا ترى البهائم ولا تسقى ، وأن يلبس الناس المسوح ، صغيرهم وكبيرهم ، وأن يجتمعوا في صعيد واحد ، يجهرون بتسبيح الله ، والإنابة إليه ، والاستغفار له ، والتوبة عما أسلفوا من الظلم والجرم ، وأن يحضروا أطفالهم وذويعهم ومواشيهم معهم . ففعلوا ، وتضرعوا إلى الله ، واستكانوا لجلاله ، وسألوه أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم . فلما علم منهم الصدق من قلوبهم ، والتوبة والندامة على ما مضى منهم ، كشف عنهم العذاب ورحمهم . وسيأتي في (سورة الصافات) زيادة في نبا يونس عما هنا .

تنبيهات :

الأول - يروى بعض المفسرين هنا أن العذاب تدلى عليهم ، وغشيه ، وجعل يدور على رؤوسهم ، وغامت السماء غيماً أسود ، ونحو هذا . وليس في التنزيل بيان لهذا ، ولا في صحيح السنة . وكأن من زعمه فهمه من لفظ (كشفنا) ، ولا صراحة فيه .

قال القرطبي : معنى (كشفنا عنهم عذاب الخزي) أى العذاب الذى وعدهم يونس أنه ينزل بهم لا أنهم رأوه حينئذ ، فلا خصوصية . أى كما روى عن قتادة أن هذا الكشف لم يكن لأمة من الأمم إلا لقوم يونس خاصة ، فإنه لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا علامته .

الثانى - فى الآية إشارة إلى أنه لم يوجد قرية آمنت بأجمعها بنبيها المرسل إليها من سائر القرى ، إثر بعثته وإنذاره ، إلا قوم يونس . والبقية دأبهم التكذيب ، كلهم أو أكثرهم ، كما قال تعالى ^(١) : (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) .

وفي الحديث الصحيح^(١) : عرض على الأنبياء ، فجعل النبيّ ير ومعه القمام من الناس ، والنبيّ معه الرجل ، والنبيّ معه الرجلان ، والنبيّ ليس معه أحد) .

الثالث - أخرج ابن أبي حاتم عن عليّ رضي الله عنه . قال : إن الحذر ، لا يرد القدر ، وإن الدعاء يرد القدر ، وذلك في كتاب الله : (إِيَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا . . .) الآية - .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : الدعاء يرد القضاء ، وقد نزل من السماء . افرؤوا إن شئتم : (إِيَّا قَوْمَ يُونُسَ . . .) الآية - .
وأخرج ابن مردويه عن عائشة ، مرفوعاً ، في قوله تعالى : (إِيَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا) قال عليه السلام : دَعَوْا - كَذَا في الإكليل - .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ » أي بحيث لا يشذ عنهم أحد « جَمِيعًا » أي مجتمعين على الإيمان ، لا يختلفون فيه . أي : لكنه لا يشاؤه لمخالفته للحكمة التي بنى عليها أساس التكوين والتشريع « أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ » أي على ما لم يشأ الله منهم « حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » أي ليس ذلك عليك ، ولا إليك ، كقوله تعالى^(٢) : (لَيْسَ

(١) أخرجه البخاري في : ٩٦ - كتاب الطب ، ٤٢ - باب من لم يَرَقْ ، حديث ١٦٠٥

ومسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٣٧٤ ، عن ابن عباس (طبعنا) .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٧٢] .

عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . وفيه تسليمة له ﷺ ، وترويح لقلبه مما كان يحرص عليه من إيمانهم ، كقوله تعالى (١) : (لَمَّا لَكَ بِأَخِي نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (فَإِنَّ اللَّهَ بُضِلَ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدَى مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ) (٢) ولذا قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَجْعَلُ الرُّجُسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » أى بإرادته وتوفيقه ، فلا تجهد نفسك فى هداها ، فإنه إلى الله ، « وَيَجْعَلُ الرُّجُسَ » أى الخذلان « عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » أى حججه وأدلتهم ، لما على قلوبهم من الطبع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

« قُلْ انظُرُوا » أى تفكروا « مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى من الآيات الدالة على توحيده ، وكمال قدرته . قال السيوطى : فى الآية دليل على وجوب النظر والاجتهاد ، وترك التقليد فى الاعتقاد . « وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » أى وما تنفع الآيات والرسل المنذرون ، أو الإنذارات ، عن لا يؤمن . و (ما) استفهامية أو نافية .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٣] . (٢) [٣٥ / فاطر / ٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَانْتَظِرُوا
إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

« فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ » أى وقائمه تعالى فيهم ،
كما يقال (أيام العرب) لوقائمهها ، من التعبير بالزمان عما وقع فيه ، كما يقال (المغرب) للصلاة
الواقعة فيه . « قُلْ » أى تهديداً لهم « فَانْتَظِرُوا » أى ما هو عاقبةكم ، « إِنِّي مَعَكُمْ
مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ » .

وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ)
« ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا » عطف على محذوف معلوم من السياق ، كأنه قيل : نهلك الأمم
ثم ننجى رسلنا المرسله إليهم « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ »
أى من كل شدة وعذاب . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)
« قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ » إنما أوثر الخطاب باسم الجنس -
أعنى الناس - مصدراً بحرف التنبيه ، تعميماً للتبليغ ، وإظهاراً لكمال العناية بشأن ما بلغ
إليهم . وعبر عما هم فيه من القطع بالشك ، للإيذان بأنه أقصى ما يمكن خطوره ،

وإلا فإن وضوح صحته ، وبرهان حقيقته أوضح من الشمس في رابعة النهار . وقدّم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى ، إيذاناً بمخالفتهم من أول الأمر . وفي تخصيص التوفى بالذكر ، متعلّقاً بهم - ما لا يخفى من التهديد ، إذ لا شيء أشد عليهم من الموت . « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى بأعلى مراتب التوحيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا » أى مائلاً عن الأديان الباطلة .

لطيفتان :

الأولى - إقامة الوجه للدين كناية عن توجيه النفس بالسكينة إلى عبادته تعالى ، والإعراض عما سواه ، فإن من أراد أن ينظر إلى شيء نظر استقصاء ، يقيم وجهه فى مقابلته ، بحيث لا يلتفت يمينا ولا شمالا ، إذ لو التفت بطلت المقابلة ، فلذا كنى به عن صرف العمل بالسكينة إلى الدين ، فالمراد بالوجه الذات . أى : اصرف ذاتك وكليتك للدين ، فاللام صلة .

الثانية - جملة (وَأَنْ أَقِمَّ) عطف على (أَنْ أَكُونَ) . وجاز حكاية صلة (أَنْ) بصيغة الأمر ، لأنه لا فرق فى صلة الموصول الحرفى بين الطلب وبين الخبر ، لأن القصد وصلها بما يتضمن معنى المصدر ، وهو يحصل بكل فعل . وقال بعضهم : إن هنا فعلا مقدراً . أى وأوحى إلى أن أقم ، وأنه يجوز أن تكون (أَنْ) مصدرية ومفسرة ، لأن فى المقدر معنى القول دون حرفه ، ثم رجحه بأنه يزول فيه قلق العطف ، ويكون الخطاب فى وجهك فى محله . ورد بأن الجملة المفسرة لا يجوز حذفها ، ولا قلق فى هذا العطف ، وأمر الخطاب سهل ، لأنه للملاحظة المحسوسة ، والأمر المذكور معه - كذا فى (العناية) .

وقوله تعالى : « وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » تهيمح وحث له على عبادة الله تعالى ،

ومنع لغيره ، كما تقدم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ)

« وَلَا تَدْعُ » أى لا تعبد « مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ » أى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة إن عبده « وَلَا يَضُرُّكَ » إن لم تعبد « فَإِنْ فَعَلْتَ » أى عبده « فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ » أى الضارين لنفسك ، أو بوضع الأمر فى غير موضعه ^(١) (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) « وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ » وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » لما نهى تعالى عن عبادة الأوثان ، ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر ، بين أنه سبحانه هو الضار النافع ، الذى إن أصاب بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده ، دون كل أحد ، فكيف بالجناد الذى لا شعور به . وكذلك إن أراد بخير ، لم يرد أحد ما يريد من فضله وإحسانه ، فكيف بالأوثان ؟ فهو الحقيق ، إذا ، بأن توجه إليه العبادة دونها .

لطائف :

قيل : ذكر المس فى أحدهما ، والإرادة فى الثانى ، الإشارة إلى أنهما متلازمان ، فما يريد يصيبه ، وما يصيبه لا يكون إلا بإرادته . لكنه صرح فى كل منهما بأحد الأمرين ، إشارة إلى أن الخير مقصود بالذات له تعالى ، والضرر إنما وقع جزاء لهم على أعمالهم ، وليس مقصوداً بالذات ، فلذا لم يعبر فيه بالإرادة .

(١) [٣١ / لقمان / ١٣] .

وقيل : قصد الإيجاز ، فذكر في كل من الفقرتين المتقابلتين ما يدل على إرادة مثله في الأخرى ، لافتضاء المقام تأكيد كل من الترغيب والترهيب ، وهو نوع من البديع يسمى احتباكاً .

قال أبو السعود : على أنه قد صرح بالإصابة حيث قيل (يصيب به) إظهاراً لسكال العناية بجانب الخير ، كما ينبغي عنه ترك الاستثناء فيه . أي : يصيب بفضل الواسع المنتظم لما أراذك به من الخير .

روى ابن عساكر عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات ربكم ، فإن لله نفحات من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوه أن يستر عوراتكم ، ويؤمن روعاتكم . ورواه عن أبي هريرة بمثله .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

« قُلْ » أي لأولئك الكفرة الفجرة ، بعد ما بلغتهم دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، وأنذرهم ، « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ » يعني القرآن « فَمَنِ اهْتَدَىٰ » أي بالإيمان به ، « فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ » أي منفعة اهتدائه لها خاصة ، « وَمَنْ ضَلَّ » أي بالكفر به « فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا » أي فوبال الضلال عليها . والمعنى : لم يبق لكم بمجيب الحق عذر ، ولا على الله حجة ، فن اختار الهدى واتباع الحق ، فما تقع إلا نفسه ، ومن آثر الضلال ، فما ضر إلا نفسه . وفيه تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد إليه ، عليه السلام ، من جلب تقع أو ضر ، كما يلوح به إسناد المجيء إلى الحق ، من غير إشعار بكون ذلك بواسطته - أفاده أبو السعود - .

« وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » أي بحفيظ موكل إلى أمركم ، وإنما أنا بشير ونذير -

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُضِّكَ اللَّهُ ، وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ)

« وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ » أى فى التبليغ ، وإن لم يهتدوا به ، « وَاصْبِرْ »
أى على أذاهم فى الدعوة ، « حَتَّىٰ يَخُضِّكَ اللَّهُ » أى لك بالنصرة عليهم والغلبة « وَهُوَ
خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » وقد حكم وشاء قتلهم وأسرهم يوم بدر ، وله الأمر من قبل ومن بعد .

